مرحلة التشيّع في المغرب العربي

وأثرها في الحياة الأدبية

الدكتور محمد طه الحاجري

مرحلة التشيّع في المغرب العربي

وأثرها في الحياة الأدبيّة

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

الفصل الأول

الوضع السياسي في المغرب العربي
ابان قيام دولة العبيديين

لم يكد القرن الثالث يميل نحو نهايته ، حتى كانت الأمور في المغرب العربي قد اخذت في الاضطراب ، وبدا أن زمامها يؤذن بالتحول ، في الاقاليم الثلاثة جميعاً : افريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، بعد أن أمضي فترة من الزمن يمكن وصفها بالهدوء والاستقرار ، وان يكن هدوءاً واستقراراً نسبيين ، بالقياس إلى تلك المرحلة الأولى في تاريخه . وهي المرحلة التي كان المجتمع الجديد فيها ما يزال يتكون ويؤلف بين عناصره ،ويستكمل مشخصاته . وكان بذلك لا بد أن يتعرض لما هو طبيعي في مثل هذه الحالة ، من التعارض والتدافع بين صفاته الأولى وهذه العناصر المحدثة الطارئة ، وما استحدثت من ظروف ، وما صحبها من ملابسات ، فيعاني بذلك غير قليل من الهزات الاجتماعية .

ولكن ذلك الاستقرار النسبي الذي تمتع به المغرب العربي تلك الفترة من تاريخه أخذ يزايله ، بضعف الدول التي كانت تحكمه وتقبض على زمام الأمور فيه .

ذلك أن مجتمعاً كهذا المجتمع الذي كان ما يزال يتمخض بين القديم والجديد ، وبين عناصره المختلفة من أهل البادية وأهل الحاضرة ، وما يحمل كل عنصر من صفات ثابتة ، جعلت له مزاجاً خاصاً ، كان لا بد له ، حتى يظل مستقراً ماضياً في السبيل المقدورة له ، من أن يكون زمامه في يد حكومة

قوية بصيرة ، لا يصرفها صارف عما هي بسبيله ، ولا يشغلها شاغل عن رعايته ، تستطيع أن تجمع شمله ، وتضم شتاته ؛ وترضى في نطاق تلك الغابة أهواءه ، وتقمع نزواته ، وتجمع من أجل ذلك بين القوة والحكمة ، وبين الحزم والبصيرة ، كما كان الأمر ـ إلى حد غير قليل ـ في أوائل عهد الدول التي حكمت هذه الأقاليم ، منذ أواخر القرن الثاني ، فاستطاعت أن تقر الأمور حيناً فيها ، ولكنها لم تستطع أن تمضي على ذلك النهج طويلاً ، إذ لم تلبث أن عاجلتها عوامل ذلك المجتمع ، وقد بادرتها الشيخوخة مبكرة ، فاضطرب الزمام في يدها ، وأخذ الضعف يدب في أوصالها . والفتور يعبث بها ، فلم تستطع الصمود لعوامل التدافع والتعارض والتنافر الكامنة في ذلك المجتمع ، فكان هذا الاضطراب الذي نشهده في أواخر القرن الثالث ، في دول الاغالبة والرستميين والأدارسة .

هذا الضعف الذي منيت به تلك الأسر الحاكمة ، وهذا الاضطراب الذي جعل يسود الحياة في المغرب العربي ، كان مما مهد لذلك العنصر الجديد الذي تسلل إلى تلك البلاد ، ثم أخذ يداخلها ، ويحاول بكل ما يملك من عزيمة وفطنة أن يفرض نفسه عليها ، ثم لم يلبث أن قوي فيها واستشرى . وهو عنصر التشيع الذي جاء مع الدعاة الأول، كأبي عبد الله الصنعاني ، ثم أبي سفيان والحلواني ، إلى أن وطد أقدامه بأبي عبد الله الداعي ، واستطاع بعبيد الله المهدي أن يقيم على انقاض هذه الدول التي أزالها عن مكانها دولة جديدة ، يطلق عليها اسم دولة الشيعة أو دولة العبيديين ، كما يطلق عليها أحياناً اسم دولة الفاطميين أو دولة العلويين . وذلك تبعاً لما تذهب إليه الآراء فيها من صحة نسبها في العلويين ابناء فاطمة ؛ أو إنكار هذا النسب ورفضه ، فينسبونها بذلك إلى مؤسسها عبيد الله ، أو ما كان يدين به ، ويأخذ الناس باتباعه ، من مذهب الشيعة .

في ذلك الوقت الذي دخل فيه التشيع إلى المغرب العربي ، كان هذا المذهب قد تحول تحولاً ظاهراً كبير الخطر . فلم يعد ـ كما كان الشأن فيه في مبدأ أمره ـ مجرد دعوة لابناء علي

وفاطمة أو ثورة على الأمويين إذ غصبوهم حقهم ، واستلبوا ما كان ينبغي ، فيما يرون ، أن يكون لهم ، ثم تعقبوهم وجعلوا ينكلون بهم . فإن اتجاه التشيع إلى المشرق ، واتخاذه من بلاد الفرس موطناً له ، وموئلاً يئل إليه ويعتصم به ، واعتضاده بما كان بين العرب الذين كان يمثلهم بنو امية ، وهم خصومه ، وبين الفرس من عداوة راسخة ، واحتضان هؤلاء الفرس له ، كل ذلك انحرف به عن نصابه الأول ، وتحول به عن صورته الأولى ، إذ أسبغ عليه ألواناً جديدة مشتقة من العقلية الفارسية بمواريثها المختلفة ، وخلط ما بينه وبين هذه العقلية وصور ادراكها للاسلام ، كما أحاطه بكثير من الغموض والابهام ، فما نراه واضحاً في جميع الحركات الشيعية التي جعلت تظهر في الشرق والغرب ، واخذت تزداد كثرة وحدة ، وتحكم اعداداً وتدبيراً منذ أواسط القرن الثالث ، أو منذ أخذت القومية الفارسية تقوى وتشتد ، وتفرض نفسها على العالم الاسلامي .

وذلك هو التشيع الذي دخل المغرب العربي في أواخر القرن الثالث ، ومن قبل دخل التشيع هذه البلاد مع ادريس بن عبد الله ، في أواخر القرن الثاني . ولكن ما أبعد ما بين التشيع الجديد والتشيع القديم : التشيع الفارسي والتشيع العربي .

وهذا ـ فيما نرى ـ هو أصل الخلاف بين دولتين تنتسبان جميعا إلى علي ، في المغرب العربي ، وقد أسست كلتاهما على هذه النسب ، واستمدت سلطانها من انتمائها إلى الرسول ، ﷺ ، وأحاطت نفسها بالنفوذ الروحي الذي يضفيه ذلك الانتماء إليها ، وهما دولة الادارسة ودولة العبيديين . ثم يختلف الأمر بعد ذلك بينهما اختلافاً بيناً ، فدولة الادارسة لم تكد تفرض مذهباً معيناً ، أو أن ما فرضته من ذلك إنما كان في حدود ضيقه ، بقدر ما كان بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة من خلاف غير كبير ، قبل أن يصطبغ التشيع بتلك الصبغة الباطنية ، ويرتبط بالقومية الفارسية .

والخصومة التي كانت بين الادارسة والأغالبة هي في معظم أمرها ، أو في حقيقته ، خصومة سياسية ، تصدر أكثر ما تصدر عن تلك الخصومة بين الدولة العباسية والعلويين الخارجين عليها ، والثائرين على سلطانها . أما دولة

العبيديين فأمرها في ذلك مختلف ، فالخصومة التي نشبت بين دعاتها ومنشئيها وبين الأغالبة هي في جوهرها خصومة مذهبية بعيدة المدى . وقد أقامت أمرها على الدعوة لمذهبها والالحاح في الاقناع به واجتذاب الناس إليه ، مصطنعة في هذه الدعوة كل وسيلة متخذة كل أسلوب ، كما تجعل الاقرار لهذا المذهب والخضوع له جزءاً من الولاء لها . كما كان من أهدافها التي لم تغب قط عنها أن تصبغ جوانب الحياة بصبغتها، مستعينة في ذلك بكل وسيلة تتاح لها .

وكانت وسيلتها الأولى التي استطاعت أن تحكم أمرها حتى سلست وانقادت ومكنت لها هي استغلال بساطة البداوة وبدائية الادراك البدوي ، والعاطفة الدينية الساذجة التي لا تستطيع أن تفصل بين الاشخاص والمبادىء ، كما لا تستطيع في كثير من الأحوال أن تفرق بين الحقائق والأوهام . وبذلك مكنت لنفسها أول أمرها في المغرب الأقصى في قبيلة كتامة ، واتخذت منها جندها وأعوانها ، واستطاعت بهم أن تبسط سلطانها وتمده إلى أفريقية ، حتى بلغت فيها أولى غاياتها ، اذ قضت على دولة الاغالبة وخلفتها عليها . واتخذت منها قاعدة ملكها ، ومركز انطلاقها ، سنة ٢٩٧ . ومن قبل ذلك قضت على دولة الرستميين بتاهرت ، سنة ٢٩٦ ، وقتل أبو عبد الله الداعي آخر ملوكها : يقظان بن أبي اليقظان ، كما قضت في هذه السنة أيضاً على دولة بني مدرار في سجلماسة .

ومنذ استقرت دولة العبيديين في أفريقية ، واطمأنت إلى مكانها فيها ، أخذت توجه تدبيرها إلى المغرب الأقصى ، حتى يتم لها أمر المغرب كله ، فلم تلبث دولة الادارسة أن لحقت بدولة الرستميين ودولة بني مدرار ودولة الأغالبة ، سنة ٣٠٥ . وكان عبيد الله المهدي رأى أن يوكل أمر اسقاطها إلى رجل من أهل المغرب الأقصى ، ومن أكبر زعمائه ، هو مصالة بن حبوس المكناسي ، وكان قد ولاه أمر تاهرت والمغرب الأوسط جميعه ، فزحف إلى المغرب الأقصى ، وما لبث أن بلغ مدينة فاس ، ونشبت الحرب بينه وبين صاحبها يحيى بن ادريس ، وكان أمره قد تضاءل ، فانتهت المعركة بانتصار مصالة وظفره بيحيى ، ثم صالحه على مال يؤديه إليه ، وخرج من الأمر

كله ، وانفذ إلى المهدي في افريقية بيعته . وتم الأمر بينهما على أن يظل يحيى عاملاً على فاس خاصة من قبل المهدي ، وإن لم يبق على ذلك طويلاً . أما سائر المغرب فقد وليه ابن عم مصالة : موسى بن أبي العافية المكناسي .

وبذلك خلص المغرب العربي ، في مطالع القرن الرابع ، للدولة العبيدية . وإن لم يكد يستقر لها تماماً ، وتصفو سيطرتها عليه ، إذ كانت الثورات والخصومات والنزاع بين القوى المختلفة فيه ، ما تزال ناشبة هنا وهنا ، على الرغم من استيلائها على جميع أقاليمه ، على النحو الذي رأينا .

أما المغرب الأقصى فقد اخذت الدولة الأموية في الأندلس ـ وكانت قد بلغت أوج مجدها ورفعتها ـ تنازع الحكم العبيدي أمره ، وتجاذبه النفوذ فيه والسيطرة عليه ، ثم ها هوذا أميره موسى بن أبي العافية الذي يلي أمره للعبيديين ، ويحكم باسمهم ، لـم تلبث صلة الولاء التي تربطه بهم أن رثت ووهنت ، فإذا هو منحرف عنهم ، إلى أن استقل بالأمر دونهم ، وقد امتد سلطانه حتى بلغ المغرب الأوسط ، ونشبت الحرب بينه وبينهم . وقد ظل الأمر في المغرب الأقصى وما يليه مضطرباً بين هذه القوى التي تتنازعه من خارجه ومن داخله : افريقية والأندلس وبعض الأسر الكبرى من أهله ، إلى أن انتهى القرن الرابع .

فأما أفريقية التي كانت قاعدة ملك العبيديين فربما كان الأمر فيها أهون من هذا : إنما هي ثورة الخوارج التي قادها أبو يزيد الخارجي ، في أيام القائم بأمر الله ، وقد جعل أمرها يستفحل وخطرها يتهدد الدولة ، إلى أن استطاع المنصور أن يقضي عليها ، وإن بقي من آثارها بقايا مشتتة مبعثرة هنا وهنا ، ليس لها كبير خطر .

ومهما يكن من أمر فقد كان هذا كله : ما حدث في المغرب الأقصى من حركة انفصالية ، ربما نشأت عن بواعث عنصرية أو اقليمية ، وما حدث في أفريقية من رد فعل طبيعي ، صدر عن أصول مذهبية ؛ كان هذا كله أمراً طبيعياً له ما يبرره من طبيعة العصر ومزاج ذلك المجتمع . وهو لا يبطل

دعوى أن التشيع استطاع في ظل دولة العبيديين أن يفرض نفسه ، وأن يطبع الحياة بطابع منه ، وأن يهيىء لسلطانه الأسباب التي تمكن له .

وأحسب أنه كان من أول ذلك اتجاه الدولة إلى حفز الحياة المدنية وفسح مداها ، وذلك بانشاء بعض المدن التي تستطيع أن تعتصم بها وتمتنع فيها ، وتحقق فيها كثيراً من أهدافها ، وتبعث فيها ألواناً من النشاط الذي يطبعها بطابعها . والتي لا نرى بداً من أن يوليها هذا البحث بعض عنايته . إذ كان لهذه المدن ، فضلاً عن تلك الأغراض التي دعت الدولة إلى إنشائها ، وعن قيمتها الحضارية وأثرها في تطور المجتمع المغربي ، أثرها في الحياة الأدبية خاصة .

وأول هذه المدن التي عنيت الدولة العبيدية بانشائها مدينة المهدية .

وقد أنشأها عبيد الله المهدي ـ وبه سميت ـ على ساحل البحر ، وانتقل إليها من رقادة التي كانت مقر الدولة الأغلبية ، منذ بناها ابراهيم الأصغر سنة ٢٦٤ . ومنذ خلفت المهدية رقادة صارت مقر الدولة ومركز السلطان ، وبقيت محتفظة بهذه الصفة إلى أن حلت محلها مدينة تونس في عهد الموحدين ، فيما عدا الفترة التي اتخذ فيها اسماعيل بن أبي القاسم مدينة صبرة .

وقد كان طبيعياً أن يفكر المهدي في بناء مدينة كهذه المدينة ، لا لما جرت عليه عادة الدول الجديدة من استحداث قواعد لها غير قواعد أسلافها ، فحسب ، باعتبار ذلك مظهراً من مظاهر السلطان ، بل لأن تطور الحياة الاسلامية كان من شأنه أن يدعو المهدي إلى إنشاء مدينة تكون أكثر تحقيقاً لأغراضه ، وتجاوباً مع حاجاته ، من المدن الداخلية التي جرى المسلمون من قبل على ايثارها ، كالقيروان ورقادة في أفريقية . فقد تغيرت دواعي ذلك الايثار ، وحلت محلها دواع أخرى ، بتطور الحياة الاسلامية ، واستكمال الدولة مقوماتها لتكون احدى الدول البحرية الكبرى . فكان انشاء مثل هذه المدينة مظهراً من مظاهر هذا التطور ، تواجه به الدولة

التزاماتها الجديدة ، وتحقق به حاجاتها ، من ناحية السلطان وبسط النفوذ واخذ الثقة للدولة القائمة ، ومن ناحية توفير مظاهر الحضارة .

وقد احتفل المهدي لهذه المدينة ، وعنى بها عناية كبرى ، منذ أول أمرها إلى غايته : منذ اختيار مكانها ـ وقد كان اختيار المكان وما زال أمراً يستدعي الدقة البالغة ومراعاة الاعتبارات المختلفة ـ إلى الفراغ منها . وقد شرع في اختطاطها سنة ٣٠٣ ، أو لعله كان قبل ذلك ، فيما يقوله أبو عبيد البكري ، من أهل القرن الخامس ، إذ يجعل اختطاطها سنة ٣٠٠ ، ولكنه لم يفرغ منها وينتقل إليها إلا سنة ٣٠٨ . وقد استطاع في هذه السنوات الخمس أو الثمان أن يجعل منها مكاناً حصيناً ، وأن يهيئها لتكون عاصمة ذلك الملك الواسع ، وأن يوفر لها من أسباب الحياة ومظاهر الحضارة ما يفي بتطلعه ويلائم مطامحه .

ولعلنا نستطيع أن نرى صورة مقاربة من ذلك فيما ذكره عنها أبو عبيد البكري . وقد نقله عنه ياقوت في معجمه . قال[1] :

« جعل لمدينتها بابا حديد لا خشب فيهما ، كل باب وزنه ألف قنطار ، وطوله ثلاثون شبراً . كل مسمار من مساميره ستة أرطال . وجعل فيها من الصهاريج العظام ـ وأهل تلك النواحي يسمونها مواجل ـ ثلثمائة وستين موجلاً ، غير ما يجري إليها من القناة التي فيها . والماء الجاري الذي بالمهدية جلبه عبيد الله من قرية ميّانش ، وهي تقع على مقربة من المهدية ، في أول أقداس[2] . ويصب في المهدية في صهريج داخل المدينة عند جامعها ، ويرفع من الصهريج إلى القصر بالدواليب . وكذلك يسقي أيضاً من قرية ميانش

---

(١) معجم البلدان ٨: ٢٠٧ (ط مطبعة السعادة بالقاهرة ، ١٩٠٦م) .

(٢) كذا . وقد جاءت ميانش في كتاب الاستبصار (ص ١١٧) بهذه الصورة مشانس . وياقوت أوردها في باب الميم والياء ، وقال في مادتها : « وذكر أبو عبيد البكري أن المهدي لما بني المهدية استجلب الماء الى المهدية في قناة صنعها . فكان يستقي من آبار ميانش بالدواليب إلى برك ، ويخرج من تلك البرك في قناة إلى صهريج في جامع المهدية ، ويستقي من ذلك الصهريج والدواليب الى القصر » ٨.٢١٩ .

من الآبار بالدواليب ، يصب في محبس يجري منه في تلك القناة .

قال : ومرسى المهدية منقور في حجر صلد يسع ثلاثين مركباً ، على طرفي المرسى برجان بينهما سلسلة حديد . فإذا أريد ادخال سفينة أرسل حراس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة ، ثم يمدونها كما كانت تحبيساً لها. ولما فرغ من احكام ذلك قال : اليوم امنت على الفاطميات . يعني بناته . وارتحل اليها وأقام بها . ثم عمر فيها الدكاكين ، ورتب فيها ارباب المهن : كل طائفة في سوق ، فنقلوا اليها أموالهم .

فلما استقام ذلك أمر بعمارة مدينة أخرى إلى جانب المهدية ، وجعل بين المدينتين قدر طول ميدان ، وأفردها بسور وميدان وحفظه ، وسماها زويلة ، وأسكن أرباب الدكاكين من البزازين وغيرهم فيها بحرمهم وأهاليهم ، وقال : إنما فعلت ذلك لآمن غائلتهم ، وذاك أن أموالهم وأهاليهم هناك . فإن أرادوني بكيد وهم في المهدية خافوا على حرمهم هناك . وبنيت بيني وبينهم سوراً وأبواباً ، فأنا آمن منهم ليلاً ونهاراً ، لأني أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً ، وبينهم وبين حرمهم نهاراً » .

تلك هي صورة من المهدية كما صورها مؤرخ من أقرب المؤرخين عهدا بها ، وذلك بعض تدبير المهدي لها وعنايته بها .

ثم كان من تمام التدبير الذي كان المهدي يدبره لها ، ومما هو واضح الدلالة على ذلك التطور الذي أشرنا إليه ، أن بنى فيها (دار الصناعة) ، أي صناعة السفن . وقد أشار التجاني إلى ذلك في رحلته . وقال عن هذه الدار إنها من عجائب الدنيا[١] .

فهذه هي مدينة المهدية التي لم تلبث أن اصبحت ـ كما سنرى بعد ـ قاعدة من قواعد النشاط الأدبي والعقلي في المغرب العربي . وقد أخرجت طائفة من الشعراء والأدباء ذكر بعضهم ابن رشيق ، من أهل القرن التالي ،

---

(١) رحلة التجاني ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ط المطبعة الرسمية بتونس ، ١٩٥٨ ـ

في انموذجه ، كما أشار إلى ذلك التجاني بقوله : « وفي انموذج ابن رشيق منهم من له البدائع ، كعبد الله بن ابراهيم بن مثنى ، وعلي بن عبد الكريم بن أبي غالب ، ومحمد بن حبيب » ، كما ذكر بعد ذلك أن ابن رشيق خصهم بالتأليف في كتاب سماه : « الروضة الموشية في شعراء المهدية »[1] .

وكما انشأ العبيديون المهدية على البحر ، بنوا في الداخل ، قريباً من القيروان ، مدينة أخرى هي مدينة صبرة ، وكانما كان ذلك اسمها القديم الذي أطلق عليها عند انشاء المنصور ، ثالث الخلفاء الفاطميين ، لها ، ثم سميت بعد بالمنصورية نسبة اليه ، كما يمكن أن نرى ذلك في صدر حديث أبي عبيد البكري عنها ، إذ يقول : « ومدينة صبرة متصلة بالقيروان ، بناها اسماعيل المنصور سنة ٣٣٧ واستوطنها ، وسماها المنصورية » . كما أطلق عليها أيضاً اسم المنصورة ، وكانما كان ذلك تسجيلاً لما أحرزه المنصور هذا من نصر على خصمه أبي يزيد الخارجي . وبهذا الاسم ذكرها صاحب الاستبصار في قوله عنها : « وهي مدينة كبيرة بناها اسماعيل وسماها المنصورة » . وكذلك ذكرها ياقوت بين المدن المسماة بالمنصورة . إلا أنه يقول : « وأكثر ما يسمون هذه التي بافريقية خاصة المنصورية بالنسبة » .

وقد اتيح لها من العمران والازدهار ما نرى طرفاً منه في حديث أبي عبيد البكري عنها ، إذ يقول : « وهي منزل الولاة إلى حين خرابها . ونقل اليها المعز بن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . ولها خمسة أبواب : الباب القبلي ، والباب الشرقي ، وباب زويلة ، وباب كتامة ، وهو جوفي ، وباب الفتوح ، ومنه كان يخرج بالجيوش . ويذكر أنه كان يدخل أحد ابوابها كل يوم ستة وعشرون ألف درهم من المكوس » .

وإذا لم يكن بين يدي الآن ما يدل على مبلغ اسهامها في النشاط الأدبي ، فأكبر الظن أن قربها من القيروان ، بحيث تكاد تكون ضاحية لها ، جعل الحديث عنها في مثل ذلك مغموراً بالحديث عن القيروان .

---

(١) ص ٣٦٦ .

وإلى جانب هاتين المدينتين في افريقية بنى العبيديون مدينة ثالثة في بلاد الزاب من المغرب الأوسط ، هي مدينة المسيلة ، اسمها الأصلي ، أو المحمدية نسبة إلى محمد بن عبيد الله المهدي ، الملقب بالقائم ، ثاني خلفاء الدولة العبيدية . قال ياقوت : « اختطها محمد بن المهدي الملقب بالقائم في أيام أبيه . وذلك أن أباه أنفذه في جيش حتى بلغ تاهرت، فقتل وتملك، ومر بموضع المسيلة فأعجبه، فخط برمحه، وهو راكب فرسه، صفة مدينة، وأمر علي بن حمدون الأندلسي ببنائها ، وسماها المحمدية باسمه - وكانت خطة لبني كملان ، قبيلة من البربر ، فأمر بنقلهم ألى فحص القيروان ، فهم كانوا أصحاب أبي يزيد الخارجي عليه - فأحكمها ونقل اليها الذخائر . وذلك في سنة ٣١٥ »[١] .

كما يصفها صاحب الاستبصار بقوله ، ولم يطلق عليها غير اسمها الأصلي : « ومدينة المسيلة كثيرة النخل والبساتين ، تشقها جداول المياه العذبة . وكانت مدينة عظيمة على نظر كبيرة ، وحواليها قبائل كبيرة من البربر ، من عجيسة وهوارة وبني برزال »[٢] .

أما علي بن حمدون الأندلسي الذي وكل اليه محمد بن عبيد الله بناء المسيلة فقد كان اذ ذاك امير اقليم الزاب ، بل هو أول امرائه في عهد العبيديين . فقد كان من أصفيائهم الذين يدينون بدعوتهم من قبل أن يخلص السلطان لهم .

وإذ كانت المسيلة أو المحمدية قاعدة بلاد الزاب ، فإنها لم تلبث أن أصبحت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة الأدبية في المغرب العربي ، وخاصة حين تولى أمرتها جعفر بن علي ، بعد ابيه علي بن حمدون الذي لقي حتفه في قتال

---

(١) معجم البلدان ٢٩٨:٧ .
(٢) الاستبصار ص ١٧٢ .

الخوارج . فقد كان أميراً طموحاً ممدحاً ، جعل من مجلسه ندوة أدبية رفيعة ، وأراد أن يصطنع في قصره مظاهر الترف الأدبي ، كما نرجو أن نعرض لذلك بعد ، إن شاء الله .

* * *

الفصل الثاني

النشاط الفكري والديني في دولة العبيديين

تلك هي جملة القول في الوضع السياسي للمغرب العربي ، إبان قيام دولة العبيديين به ، وسيطرتها عليه ، بقدر ما يحتاجه التاريخ الأدبي ، ثم ما نشأ عن ذلك من إنشاء طائفة من المدن ، شاركت في تطور الحياة الاجتماعية ، كما كان لها أثرها في النشاط الأدبي . فما عسى أن يكون أثر هذا الوضع الجديد في الحياة العامة من حيث التيارات الجديدة التي أثارها ، والنشاط العقلي والديني الذي استحدثه ؟

لعل أول ما يلاحظه الناظر في هذه الفترة من تاريخ المغرب العربي ، والمتأمل في حقائق الأمور فيها ، هو أن دولة العبيديين هذه التي خلفت دولة الأغالبة في افريقية ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى ودولة الرستميين في تاهرت ودولة بني مدرار في سجلماسة تختلف عن هذه الدول جميعاً اختلافاً تاماً ، من حيث الهدف السياسي البعيد الذي تهدف إليه ، والهدف المذهبي الخاص الذي تحرص أشد الحرص عليه .

أما الهدف السياسي فهو هدف الشيعة الذي رسموه لانفسهم منذ أصبح التشيع مذهباً سياسياً تمده اعتبارات عنصرية ، وهو تكوين دولة اسلامية جديدة موحدة ، تستطيع أن تنسخ دولة الخلافة العباسية وتقوم مقامها ، وتسيطر على العالم الاسلامي كله : مشرقة ومغربة . وأما الهدف

المذهبي فهو مرتبط بهذا الهدف السياسي ، وهو صبغ المسلمين جميعاً بهذه الصبغة الشيعية الخاصة ، وأخذهم جميعاً بعقائد الشيعة الاسماعيلية ومبادئهم وشرائعهم ، فينسخ هذا التشيع سائر المذاهب الاسلامية التي عاشت معاً ، كما تنسخ دولة الشيعة الاسماعيلية دولة الخلافة العباسية .

فأما دولة الرستميين بتاهرت ودولة بني مدرار في سجلماسة ، فإذا كان لهذه أو تلك هدف سياسي بعيد يتجاوز دائرة سيادتها ، فلا يعدو - فيما يبدو - أنها تود أن تجعل من الخوارج في المغرب العربي وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد ، وأن تجعل من مذهبهم المذهب السائد في هذه البلاد . وهو مذهب يبدو أنه قريب من روح هذا المجتمع الذي تغلب عليه البداوة ، ولذلك مكن له في يسر أن يستقر فيه ، كما استطاع في المشرق أن يتخذ من بعض البيئات البدوية مناطق نفوذه، إذ كان أكثر شيوعه فيها وإنطلاقه منها . ولعل مما مكن له أنه مذهب لا يدعو إلى شخص بعينه ، ولا إلى اسرة بعينها ، ولا يدعي حقاً الهياً سبق تقريره والقضاء به في عالم الغيب ، وإنما المسلمون كلهم سواء عنده في أمر امامتهم ، وهو في ذلك كله يخالف أشد الخلاف المذهب الشيعي الذي قامت عليه الدولة العبيدية في هذه البلاد .

فمذهب الخوارج أصبح، بملاءمته هذه لمجتمع المغرب العربي ، أو مجتمع البداوة فيه ، وباحتضانه الثورات التي قام بها البربر ، على النَّحو الذي حاولنا معالجته في موضع آخر ، مذهباً مغربياً ، وإن كان في نشأته الأولى مشرقياً ، لأنه استطاع في كثير من الأوساط المغربية أن يتجاوب مع مشاعرهم ويداخل حياتهم ، وبذلك لم يكن أمراً طارئاً عليهم غريباً عنهم ، وبذلك اتخذ له مواطن في مثل ناحية تيهرت من أقليم الزاب واتخذ فيها دولة له ، وفي مثل سجلماسة من أقاليم المغرب الأقصى النائية . أما قيام دولة الشيعة في المغرب فليس في حقيقته - فيما نرى - إلا صورة من صور الثورات التي كانت تحاول أن تقلب نظام الحكم ، والتي جعلت تغمر العالم الاسلامي في المشرق ، منذ أواسط القرن الثاني ، ولم تزل دائبة على هذه المحاولة ، حتى

استطاعت في القرن الرابع أن تحقق شيئاً من غايتها ، باتخاذها أفريقية نقطة إنطلاق لها .

وقد أشرنا من قبل ـ في سياق الكلام عن فرق ما بين تشيع العبيديين وتشيع الادارسة ـ إلى الصلة التي جعلت تربط بين الشيعة والفرس ، وهي الصلة التي لم تلبث أن وصلت ما بينهم وبين العقلية الفارسية ، وفتحت ما بينهم وبين مواريث هذه العقلية ، واتاح لهذه المواريث القديمة ذات الطابع الباطني أن تتسلل إلى المذهب الشيعي ، فلم يلبث أن تأثر بها ، وتلون بألوانها ، وبعد بذلك ما بينه وبين الاسلام في صورته الأولى وحقيقته البريئة الخالصة . وما زالت هذه المواريث تتدسس اليه وتداخله وتمتزج به ، وما زالت آثار هذه المواريث تغلب عليه ، حتى اتخذ صورة جديدة ، ولم يعد التشيع مذهباً دينياً فحسب ، ولكنه اصبح عصبية مذهبية جنسية معاً ، تتشيع للعقائد الاسلامية الفارسية ، كما تتعصب للشعوبية الفارسية .

والمتأمل في تلك الحركات المتصلة والثورات الدائمة والاضطرابات المختلفة التي كان يثيرها الشيعة ، والتي كانت تغمر أكثر أنحاء العالم الاسلامي ، هنا وهنا ، لا يكاد يرى فيها ، على اختلاف لبوسها ، وتعدد ألوانها ، إلا مظهراً من مظاهر النزعة الشعوبية الفارسية التي اخذت في الظهور في أوائل القرن الثاني ، مع نشوء الدعوة للرضا من آل محمد . وقد اتخذت منذ أول ظهورها الألوان المختلفة ، واصطنعت شتى الوسائل لتحقيق وجودها وتثبيت كيانها واصابة أهدافها . فكانت هذه الحركات أحد مظاهر تلك النزعة ، وبعض وسائلها التي تتوسل بها لتحقيق غاياتها . كما أن الناظر في هذه الخصومات التي أثارها الشيعة هنا وهنا لا يلبث أن يتبين أو يلمح في الكثير منها مظهراً من مظاهر الخصومة الأصيلة بين النزعة العربية الإسلامية والنزعة الشعوبية الفارسية .

وقد كان اتجاه هؤلاء الشيعة الذين اصطنعتهم الشعوبية الفارسية ، واعتضدوا هم بها ، إلى المغرب العربي ، هو احدى محاولاتهم التي كانوا ما زالوا يحاولونها في إصرار ودأب لتحقيق غايتهم السياسية المذهبية الكبرى ، وخاصة

بعد أن اخفقت محاولتهم في أن يكون اسقاط الدولة العربية الاموية مفضياً بالأمر اليهم .

وكانما رأوا ـ فيما قدروه في أنفسهم ، وعلى ما كان يوافيهم به دعاتهم الذين اتخذوا من بعض الأقاليم المنعزلة كاليمن مركزاً لهم ، ومن موسم الحج ميداناً لنشاطهم ، ومبدأ لخطتهم ـ أن مثل هذه البلاد التي تقع في الطرف الأقصى من العالم الاسلامي أرض صالحة يبذرون فيها بذرهم ، على حد تعبيرهم ، وبيئة ملائمة ، يستطيعون أن يثبتوا فيها أقدامهم ، ويجعلوها نقطة انطلاقهم ووثوبهم إلى سائر العالم الاسلامي . فإن الأمور لم تتعقد فيها كما تعقدت في المشرق ، ولم تبلغ فيها المنافسات السياسية المبلغ الذي ما زال يفسد عليهم في المشرق أمرهم . ثم هي بعد ذلك كله بعيدة عن سلطان الخلافة العباسية التي ما زالت قوية النفوذ مبسوطة اليد كثيرة الوسائل ، مهما بلغ من ضعف خلفائها . والدول القائمة فيها دول ضعيفة في نفسها ، متنافرة فيما بينها ، محدودة السلطان . وقبائل البربر فيها ما تزال السذاجة غالبة عليها ، كما أن الخصومات ما تزال ناشبة بينها ، إلى غير ذلك مما نرى صورة منه فيما عرضه القاضي النعمان في حديثه عن أبي عبد الله الداعي في (رسالة افتتاح الدعوة) . وفي كل ذلك ما يمكن للشيعة ، اذ يستطيعون بما لهم من تجربة وحنكة أن ينفذوا منه لفرض سلطانهم ، وتحقيق أهدافهم ، ووضع أساس دولتهم الكبرى .

وهكذا اتجهت أنظار هؤلاء الشيعة إلى هذا الأفق من آفاق العالم الإسلامي ، فإذا هو منذ أواسط القرن الثاني الموطن الأول من مواطن دعوتهم ، ومعقد الأمل في تحقيق خطتهم . ومن ذلك كان توجيه هذين الرجلين اللذين يدعى احدهما (أبا سفيان) ، ويعرف الآخر باسم (الحلواني) . وقد قيل لهما في بيان ما وجها له : « اذهبا إلى المغرب ، فانما تأتيان أرضاً بوراً . فاحرثاها واكرباها وذللاها، إلى أن يأتي صاحب البذر » . ثم كان مما أمرا به ، ليبلغا هذه الأرض البور « أن يتجاوزا أفريقية إلى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية » . أما أسلوب الدعوة فلا

أكثر من « أن يبسطا ظاهر علم الائمة من آل محمد ، صلوات الله عليهم ، وينشرا فضلهم » .

وهكذا بدأ التشيع يأخذ سبيله إلى المغرب العربي على هذا النحو الذي يحكيه القاضي النعمان في سياق قصصي بارع ، بمثل هذين الداعيين اللذين كانت وظيفتهما تأليف القلوب واستمالة الأهواء وتهيئة الأذهان والاعداد للخطوات التالية ، وخاصة الخطوة الأخيرة التي قام بها داعية آخر ، أكبر خطراً ، وأكثر نفاذاً ، وأوثق بالسياسة الشيعية صلة ، وأعرف باهدافها الظاهرة والخفية ، ومراحلها القريبة والبعيدة . ذلك هو أبو عبد الله الداعي ، الذي جاء بعد أن تهيأت الأرض واينع الزرع ، ليكون تماماً على ما بدأ به الدعاة قبله ، ويتخذ الخطوات الأخيرة الحاسمة ، ويمكن للامام المنتظر مكانه في هذه البلاد .

ولا ريب أن الدعوة الشيعية قد استطاعت، بما اتيح لها من خبرة طويلة في البيئات المختلفة ، وما أخذت به نفسها من اناة ومصابرة ، أن تتعرف سبيلها في هذه الأرض الجديدة ، وأن تتبين ، في هذا المدى الطويل ، النوازع المختلفة ، وتميز خيوطها المتشابكة ، وتعرف كيف تتأتى منها ، والمزاج العقلي السائد ، وكيف تحتال له وتنفذ اليه . وقد وجدت في إحدى قبائل البربر ، وهي قبيلة كتامة التي لاذت بها ، عمادها فيما هي مقبلة عليه ، وجندها في الزحف إلى افريقية التي كانت قد تجاوزتها ، حتى تتهيأ لغزوها ، ثم تأخذ من بعد في تصفية ما خلفته وراءها من قوى مناهضة لها . وبذلك تم لها قيام الدولة المرجوة .

ولكن الأمر لم يكن أمر قيام دولة جديدة تبسط سلطانها بقدر ما هو أمر هذا المذهب الجديد الذي يعتمد على أصول عقلية غريبة ، إذ يستمد كيانه من تلك العقلية الفارسية ، وما يكونها من ثقافات مختلفة ، أو هو على الأقل شديد التأثر بها والانسياق معها ، وامداده بما هو في حاجة اليه من مثل هذه الدولة : يصدر عنها ، وينتمي إليها ، وتسبغ عليه رعايتها ، فتشد بذلك أزره ، وتمكن له في الأرض .

ما شأن هذا المذهب الجديد الذي قام في أرض غير أرضه ، وفي بيئة غير ملائمة له ، أو هي ـ على الأقل ـ أكثر ملاءمة لغيره ، إذ يصدر عن مزاج عقلي مختلف ، معتمداً على قوة الدولة التي أقامته ، وعلى بعض الملابسات الطارئة والموقوتة ؟

وما هي التيارات التي انشأها قيام هذا المذهب في الحياة العقلية والأدبية في المغرب العربي ، وما هي ردود الفعل التي كان من الطبيعي أن تصدر عنه ، وتتردد أصداؤها في جوانب الحياة هنالك ؟

* * *

الفصل الثالث

الحياة العقلية والأدبية في الفترة الأولى بين مرحلة التشيع

لقد كانت الدعوة ـ كما رأينا ـ هي الدعامة الأولى التي رأى أصحاب هذا المذهب أن يدعموا بها أمرهم ، ويهيئوه بها للغاية المبتغاة له ، وهي قيام دولة تشتق كيانها منه ، تحوطه وتدفع عنه ، وتبسط سلطانه ، حتى تنسخ كل دولة عداها وكل مذهب غيره . وكان لهذه الدعوة نظامها المقرر وخطواتها المدروسة ومراحلها المرعية . وكانت لها أساليبها التي نستطيع أن نرى صورة منها من خلال ما يقصه القاضي النعمان ، مثلاً ، في كتابه (رسالة افتتاح الدعوة) .

وقد رأينا ، عندما عهد إلى الداعيين الأولين : أبي سفيان والحلواني ، أنه قيل لهما أن يقتصرا من الدعوة على التعريف بظاهر علم الائمة ، ونشر فضائلهم ، دون أن يتجاوزا هذه المرحلة .

حتى إذا جاء أبو عبد الله وبدأ هو بهذه المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، لم يلبث أن تجاوزها إلى ما وراءها ، إذ رأى النفوس قد تهيأت لها . فكان إذا جلس للناس جعل « يحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب ، صلوات الله عليه ، وعلى الائمة من ولده عليهم السلام . فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقن عنه ، وأحس فيه ما يريده ، القى إليه شيئاً بعد شيء ، حتى يجيبه فيأخذ عليه » . وبذلك تنشأ طبقة تالية من الدعاة ، بما تغلغلت اليه من باطن علم الائمة .

وبذلك أصبح للدعوة في المغرب العربي جهازها الذي يستطيع أن يفي بمهامها بقيادة أبي عبد الله الذي فرقهم « في القبائل ، وتجرد بنفسه للمجالس . وكان يجلس في كل يوم للمؤمنين يحدثهم ويشرح لهم ، وأمر الدعاة بذلك »[١] . كما كان من تدبيره الذي وضع به هؤلاء الدعاة في اماكنهم أن « قسم كتامة أسباعاً ، وجعل لكل سبع منها عسكراً ، وقدم عليه مقدماً ، وأطلق بكل موضع داعياً ، وسمي المقدمين والدعاة بالمشايخ »[٢] .

وكما كان لهذه الدعوة مراتبها ، كان لها ـ ولا ريب ـ اساليبها المختلفة بحسب درجة المؤمنين واستعدادهم النفسي ومزاجهم العقلي ، ومبلغ ثقافتهم ، إلى غير ذلك من الاعتبارات التي نحسب أن الدعوة كانت حريصة على مراعاتها .

وإذا لم يكن بين ايدينا ما يمكن أن يعين لنا ذلك . كله ، فإن الذي يعنينا منه في هذه الدراسة هو ما يحمل طابعاً فنيا يجعله من الآثار الأدبية التي صدرت عنها ، أو كانت بسبب منها .

وكان من ذلك وضع الأحاديث عن المهدي ، مثلاً ، ونسبتها إلى الرسول ، ﷺ ، وفي مجموعة الأحاديث الموضوعة قدر كبير من ذلك ، ربما وصعت في عهود مختلفة . ولكن الذي يعنينا ما وضع منها في هذه المرحلة ، كهذا الحديث الذي ساقه أبو عبد الله ، عندما بلغ في مسيرته نحو المغرب مع اصحابه من كتامة موضعاً يقال له (فج الأخيار)، فقال لهم فيها قال : « والله ما سمي هذا الفج إلا بكم . ولقد جاء في الحديث : أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان ، في زمان محنة وافتتان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان : قوم مشتق اسمهم من الكتمان . فانتم هم كتامة ، وبخروجكم من هذا الفج سمي : فج الأخيار » .

ومن ذلك أيضاً دعوى أن هنالك علماً يسمى (علم الحدثان) ، ينبىء عن احداث العالم إلى انقضائه ، وأن هذا العلم استأثر به الأئمة من ابناء

(١) رسالة افتتاح الدعوة ص ١٤٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧ .

علي ، وقد ورثوه عنه ـ وكان قد دونه ، كما يقرر ذلك بعض العلماء كالتهانوي ، في كتابين ، سمى أحدهما الجفر والآخر الجامعة ـ ثم اختصوا به بعض أوليائهم . واذن فهذا الذي يحدث في المغرب ، أو ما هو مقبل عليه ، أمر سبق به القضاء ، فلا محيص عنه ، ولا راد له .

وأكبر الظن أن هذه الدعوى قد نشأت في مثل هذه الظروف التي تنشط فيها الدعوة لمثل هذا المذهب ، نابعة عن بعض المواريث الكلدانية التي خالطت مذهب الشيعة ، كما سبق القول ، وعن بعض الاسرائيليات غير البعيدة عن هذه المواريث ، كما يدل على ذلك ذكر اسم (دانيال) في بعض الآثار الصادرة عنها ، كما سنرى بعد قليل .

وقد اتيح لهذه الدعوى ، مما منيت به هذه الفترة من اضطراب استبهمت فيه الأمور واشتبهت أن وجدت الرواج الذي تجده دائماً في مثل هذه الحالة ، وقد استيقظت في النفوس بعض غرائزها الكامنة ، كغريزة التطلع إلى معرفة الغيب ، وقد تنبهت تنبهاً جعلها تتشبث بكل ما يقال عنه فلا جرم وجدت الدعوة في (علم الحدثان) أداة من خير الأدوات أثراً وجدوى ، فهي كثيرة الاعتماد عليها .

وكتاب القاضي النعمان يمثل لنا أميراً من أمثل أمراء الأغالبة ، وهو ابراهيم بن أحمد الذي ولي أمر أفريقية نحواً من ثمانية وعشرين عاماً ، حتى سنة ٢٨٩ ، رجلاً قد استخفه ما يسمعه عن هذا العلم ، علم الحدثان ، فهو شديد الالتماس له حتى إذا علم أن شيخاً شاعراً يقيم في احدى قرى تونس على علم به ، استقدمه اليه ، وما زال يلح عليه في أن يفضي إليه بما يعلم منه ، حتى استجاب له بعد طول اعتذار ، فأنشده قصيدة كان مما جاء فيها :

الا يا أمين الله وابن امينه ... وعاشر سادات الملوك الأغالب
وجدت كتابا قد تقادم عهده ... رواية أشياخ كرام المناسب
رواية وهب عن سطيح ودنيل ... مشايخ علم صادق غير كاذب
تتابع رايات من الشرق سبعة ... إلى الغرب سود خافقات الذوائب

يســير بهـا خــزر العيــون تــراهم مبـاسمهم شمط طـوال الشــوارب

كما جاء فيها :

ولاة بني العباس عشرون والياً تدين لهم بالرغم أرض المغارب
وفي الست والتسعين تهبط راية من الغرب في جمع كثيف المواكب
يمـزق أرض البـربـريـة جمعهم بخيل كأمثـال القطا المتسـارب
وتطلع شمس الله من غرب أرضه فلا توبـة ترجى هنـاك لتائب

إلى آخر هذه القصيدة التي أورد القاضي النعمان أطرافاً منها[١] . وقد قال إن الشاعر عرض لابراهيم الأغلبي فيها ولم يصرح ، وفرق بين ابياتها وأغمض له بمعانيها .

بل إن ابرهيم الأغلبي هذا ـ كما يصوره القاضي النعمان ـ قد بلغ من ايمانه بهذا العلم ، واستسلامه لنبوءاته ، أنه يئس من بقائه في الحكم ، فاعتزله ، قبل الموعد الذي تعينه النبوءة وذلك في قول النعمان :

« ولما قويت أمور ابي عبد الله وظهرت صنع ابراهيم بن أحمد صنيع محمد بن يعفر الذي قدمنا خبره ، فانسلخ من الامارة وأظهر توبة . . . وكان خروج ابراهيم بن أحمد من أفريقية وركوبه البحر في رجب سنة تسع وثمانين ومائتين ، لما نظر إلى سنة تسعين التي جاءت بها الروايات قد قربت »[٢] .

هذا بينما يذكر المؤرخون أنه لم يعتزل الحكم وإنما عزل ، عزله الخليفة المعتضد حين شكا إليه أهل أفريقية تصرفاته الشاذة ، وما تدل عليه من اختلال عصبي .

وهنا نحن نرى في شعر هذا الشاعر أنه لم يكتف فيه بذكر انتصار أبي عبد الله ، بل عينت فيه السنة التي دخل فيها أفريقية ، ونزل رقادة ، وهي سنة ٢٩٦ .

وقد جاء ذلك في غير موضع من الشعر الذي يحمل هذه النبوءة . ومنه

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٩١ ـ ٩٢ .

ما ينسب إلى شاعر كان بالمشرق في أوائل الدعوة ، أطلق عليه اسم (الفهري) . وذلك إذ يقول :

فعند الست والتسعين قطع القول والعذر[1] .

بل إن من هذا الشعر ما ذكر فيه التاريخ كاملاً ، أي لم يقتصر فيه على الآحاد والعشرات ، كما عين فيه اسم الشهر ، وهو شهر رجب ، كما نرى في هذه الأرجوزة :

استمع الحق ، ودع عنك اللعب	وهاك قولاً صادقاً غير كذب
إذا أرى الكوكب تطويل الذنب	فذاك حدث ظاهر قد اقترب
في الست والتسعين يأتيك العجب	بعد كمال المئتين في رجب
من (جيجل) ينقص جيش ذو لجب	أمضى من الجمر إذا الجمر التهب
من بربر يسعون في كل حدب	ركباً ورجلاً ما يملون التعب
قد ملؤوا المشرق خوفاً ورهب	وانزلوا بالغرب ذلا ونصب
تسعون ألفا بين رأس و ذنب	سيماهم الحقد واظهار الغضب
وفيهم خلط : قريش وعرب	بكل سيف قاطع إذا ضرب
حتى إذا جازوا صعودا وصبب	في كل جيش راية من العصب
يغرزها الراكب في عود الركب	يقودهم كهل عليم بالكتب
يأوي إلى الحزم إذا الخطب اضطرب	ويأخذ الأمر البعيد عن كثب
تنقلب الدولة فيما تنقلب	مهدية في نص أسفار الكتب

عن دانيال وسطيح في العرب

وهذا الشاعر الذي يقص قصة زحف أبي عبد الله ، في أرجوزته ، على هذه الصورة ، وكأنما صدر بها وبالغاية التي ينتهي هذا الزحف اليها عن أسفار دانيال وسطيح ، قد اطلق عليه اسم ابن عقب أو ابن الأعقب . وتذكر له قصيدة أخرى يقول النعمان إنها كانت مما ينشده الناس ، يعرض

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٨٥ ـ ٨٧ .

فيها صورة اخرى ، كانما يكمل بها صورة زحف ابي عبد الله على افريقية ، فهو هنا يبشر بالمهدي وافتتاح دولته ، وبنائه مدينة المهدية ، حتى ليصف موقعها ، ولا يفوته أن يذكر الرجاء المعقود بها : أن يبتدىء منها فتح الأرض كلها ؛ وها هي ذي القطعة التي أوردها النعمان منها :

قد قلت ، لما طار عني الكرى : حتى متى ذا الليل لا يصبح
عذبني الحزن وفقد الكرى كلاهما أقسم لا يبرح
وكيف لا يحزن من لا يرى بانه يبلغ يا مسطح
دهرا يرى فيه امام الهدى بالله ، بالمغرب ، يستفتح
ويبتني البيضاء في لجة خضراء فيها نونها يسيح
ينجو من الأهوال سكانها والأرض منها كلها تفتح
لو مد من عمري إلى عمره لكنت في القرن الذي يفلح
هيهات ماذا العمر مما أرى فيما أرى الموت به يسمح

ومن الشعر الذي تمثلت فيه أمثال هذه النبوءات ، شعر قيل إنه لشاعر اسمه محمد بن رمضان ، من أهل نفطة ، إحدى مدن الجريد ، في أواخر عهد ابرهيم بن أحمد الأغلبي ، وإنه كان شيعياً ، وكان يذكر في شعره وشك انقطاع دولة بني الأغلب ، مما ضاق به الأمير ، فطلبه ، فذهب إلى بني مالك لاجئاً اليهم محتمياً بهم . فعلم وهو لديهم أن الأمير أوقع بقوم منهم ، كان قد استدرجهم حتى إذا ما اطمأنوا اليه ، وعلموا أنه قد عفى عنهم في أمر كان نقمه عليهم ، ولم يستطع إذ ذاك أن يظفر بهم ، سلط عليهم عبيده فقتلوهم . فغضب محمد بن رمضان لهم . وقال في ذلك شعراً يذكر هذا الغدر ، ويتوعد الأغالبة بانقضاء ملكهم ، وأن موعد ظهور المهدي قد أزف :

فكان مما قاله في هذا الشعر :

جرعت ضيفك كأساً أنت شاربها عما قليل ، وأمر الله ينتظر
فدولة القائم المهدي قد أزفت أيامها والذي انبا به الأثر

عن النبي ، وفيها قطع مدتكم يا آل أغلب أهل الغدر فاقتصروا
وقطع أمر بني العباس بعدكم وقطع آل بني مروان إذ بطروا

وتذكر القصة أن ابرهيم بن أحمد حاول أن يستدرجه اليه ، بما أثنى على وفائه لمن أجاره ، وما جعل يطمعه به من حبائه واكرامه والاغضاء عن تشيعه ، ولكنه كان أحصف من أن يقع في هذا الشرك. ويقول القاضي النعمان : « وكان محمد بن رمضان هذا يذكر المهدي كثيراً في الشعر » .

ثم أورد قطعة تبدأ بالنسيب الذي يتخلص الشاعر منه بقوله :

فعد عن الدار التي بان أهلها وعن كيف من بعد البلى صار حالها
فهذا أوان الحق قد حان حينه ودولة أهل البغي آن زوالها
كأني بشمس الأرض قد طلعت لها من الغرب مقرونا اليها هلالها
فيملأ أرض الله قسطا بعدله بما ضم منها سهلها وجبالها
وآمن فيها ما أخاف وأتقى وأظفر بالزلفي بها وأنالها[1]

فهذا لون من الألوان التي كانت تتخذها الدعوة في هذه المرحلة : النبوءات التي كانت تشيعها ، لتحطم بها معنوية الناس ، وتدخل بها اليأس في قلوب قوم ، والايمان المطلق في قلوب آخرين ، فتشد من أزر هؤلاء ، وتهيىء أولئك لتقبل ما لا مناص منه . ثم عرض هذه النبوءات في معرض فني ، بمثل هذا الشعر ، ينسب مرة إلى رجل سمى بالفهري ، وأخرى إلى آخر أطلق عليه اسم ابن عقب ، وثالثة إلى من يدعي محمد بن رمضان . وهو شعر مصنوع كله لهذه الغاية .

وقد يذكر الشعر تاريخاً للنبوءة ثم يتخلف تحققها عنه ، فلا بأس بتغييره ، كما حدث في هذا البيت من شعر ابن عقب ، فقد كان يروي على هذه الصورة :

في سنة التسعين يأتيك العجب بعد تمام المائتين من رجب

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ص ٨٨ - ٩٠ .

ثم قيل أن روايته أخطأت ، وإنما هو « في الست والتسعين »[1] .

ومن الصور الفنية التي اصطنعتها الدعوة ، ولا يستطيع الباحث اغفالها ، الصورة القصصية التي تتجلى في مثل القصص البارعة المفتنة التي كانت تقص عن رجل مثل أبي القاسم صاحب دعوة اليمن[2] .

ويعلق القاضي النعمان على ما ساقه من ذلك ، شعراً وقصصاً بقوله :

« والأخبار والاشعار في هذا كثيرة تخرج عن حد هذا الكتاب . وإن الشيعة يروونها ويذكرونها . وقد جاءت بها الروايات والأخبار ، وبشر بها . كما جاءت الأخبار بمبعث رسول الله ﷺ ، وعلى آله ، من قبل أن يبعث . ورواها وذكرها كثير من العرب في الشعر والأخبار ، كأمية بن ابي الصلت وورقة بن نوفل وزيد بن عمرو وأسعد ابي كرب وقس بن ساعدة وخالد بن سنان وغيرهم »[3] .

وإذن فقد كان اصطناع الدعوة هذا اللون الفني ، واتخاذها هذا المظهر الأدبي ، أمراً كثير التردد هنالك . وكأنما اتاح لها ذلك في أفريقية خاصة شيوع العنصر العربي فيها ، وغلبته عليها .

أما مقابلة القاضي النعمان ما كان من ذلك في مقتبل الدولة الشيعية ، بما كان قبل بعثة الرسول ، ﷺ ، فذلك هو دأب الشيعة دائماً ، حتى كأن لكل حدث من أحداث الائمة وكل خصلة من خصالهم ما يقابلها في عهد البعثة النبوية .

وبعد ، فهذا ما اتيح لنا مما يعرض بعض صور النشاط الأدبي الصادر عن الدعوة الشيعية في المغرب العربي ، في هذه الفترة التي سبقت قيام الدولة العبيدية .

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ - ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٧ - ٥٤ .
(٣) رسالة افتتاح الدعوة ، ص ٩١ .

ومن الطبيعي أن يكون لهذه الدعوة ردود أفعال تقابلها وتتصدى لها ، وان منها ما كان مصطبغاً بالصبغة الأدبية . ووددنا لو كان بين يدينا ما يمثل لنا هذا الجانب تمثيلاً كافياً .

على أنا نستطيع أن نكتفي الآن من ذلك بما بلغنا من الكتب التي كانت توجهها الدولة إلى الشعب في مختلف المدن والقرى ، لتقرأ عليه في منابر جوامعها ، وخاصة بعد أن اشتد عود الدعوة ، وانتقلت من المكاتمة إلى العلانية ، ومن المسالمة إلى اصطناع القوة ، فأخذ أبو عبد الله يزحف بجيوشه إلى افريقية . وكان لهذا الزحف أثره ، مع ما تقدمه من ألوان الدعوة التي عرضنا بعض صورها ، في توهين القوى واشاعة التخاذل .

ومن هذه الكتب كتاب أورده القاضي النعمان ، وقدم له بقوله :

« ولما اتصلت الأخبار بزيادة الله عن البلدان بنواحي افريقية ، وما خامر أهلها من الخوف ، ووقع فيهم من الارجاف ، وخاف أن ينفتق عليه من ذلك فتق ، أمر بكتاب ، فكتب نسخاً ، وبعث إلى كل ناحية من نواحي افريقية بنسخة منها ، وأمر أن يقرأ على المنابر ، ليهدي الناس » .

وهو كتاب ناصع الأسلوب بليغ العبارة مرتب الأجزاء ، متساوق الفقر ، وددنا لو عرفنا كاتبه من أصحاب ديوان زيادة الله ، إذ يقدم لنا صورة من النثر الفني في المغرب العربي في هذه الفترة، وان تكن لا تختلف في سماتها الأسلوبية عما نعرف من ملامح ذلك النثر في المشرق إذ ذاك . وذلك أمر طبيعي ، فلم تكن أفريقية خاصة بمعزل عن بغداد ، ولم يكن البلاط الأغلبي إلا محتذياً لما هو معروف عن قصور الخلافة والامارة في العراق . وقد كان من كتاب الأغالبة في هذه الفترة رجل بغدادي ، هو أبو اليسر ، إبراهيم بن محمد الشيباني ، صاحب الرسالة العذراء التي تنسب ، خطأ ، إلى ابراهيم بن المدبر . وغير مستبعد أن يكون هو الذي أنشأ هذا الكتاب الذي وجهه زيادة الله إلى أهل المدن وما حولها من بواديها ، وهم يتوقعون مجيء ابي عبد الله ، وقد تقدمته ، فانتشرت قبلهم ، وفشت فيهم : « الأشانيع من

أقوال المرجفين ، وزخارف المشنعين وتهويل المهولين أمر الفاسق اللعين ، لما بلغهم انصراف الجيوش عنه ، وتغلبه على ما دنا وقرب منه » ، كما هي عبارة الكتاب. وقد أرادا بهذا الكتاب أن يثبت أقدامهم ، ويربط على قلوبهم ، ويصرف عنهم ما داخلهم من ذلك ، فهو يقول بين ما يقول : « ولم يكن أكثر ما قالوه ، ولا بعض ما أرجفوا به وهولوه . ولا بد في الحروب من الكرات والاقدام ، والهزائم والاحجام . فقد قيل : الحرب سجال ، مرة لك ومرة عليك . وقد انهزم أصحاب رسول الله ، ﷺ في غير مشهد ، وأحجموا في غير موقف، ثم كانت العاقبة للمؤمنين، كما وعدهم الله عز وجل في كتابه المبين ، فليحسن بالله ظنكم ، وتطمئن بما وعدكم قلوبكم ، وليظهر من قلة اكتراثكم بأمر هذا الفاسق ما يكون دليلاً على ثقتكم بربكم . وانفروا إليه خفافاً وثقالاً ، كما أمركم الله ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، كما افترض الله عليكم ، وادفعوا عن اباحة مهجكم ، وانتهاك حريمكم ، وألا تفتنوا في دينكم ، وكافحوا عنه من بدله ، وتبرأوا ممن أحدث فيه وغيره » .

وليس بنا في هذا الموضع إلا أن ندل على أسلوب هذا الكتاب وبعض سياقه . وإلا أن نشير إلى هذا الوجه من وجوه النشاط الأدبي الذي اثارته الدعوة الشيعية ، في هذه المرحلة من مراحلها . ولعل فيما قدمنا من ذلك ما يمكن أن يكتفى به[1] .

انتهت هذه المرحلة بانتهاء زحف ابي عبد الله إلى أفريقية ، ودخوله مدينة رقادة ، في غرة شهر رجب سنة ست وتسعين ومائتين . ثم اعقبت هذه المرحلة فترة انتقالية امتدت نحو عشرة أشهر سار فيها عبيد الله ومعه ابنه نزار من سلمية بأرض حمص إلى المغرب ، ولحق به فيها أبو عبد الله ، واستخلصه من السجن الذي كان أودعه فيه صاحب سجلماسة ، وعاد به إلى افريقية ، وبوأه عرشها في رقادة ، وابتدأت منذ ذلك الوقت ، في أواخر ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين ، دولة المهدي الذي ظلت الدعوة تبشر به ، وتدعو اليه ، على النحو الذي رأينا .

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ص ١٧٠ ـ ١٧٤ .

وبذلك ابتدأت مرحلة جديدة للدعوة تناسب هذه الحالة الجديدة التي آلت اليها الأمور في أفريقية و المغرب ، وما جعلت الحياة تضطرب به هنالك من أحداث وفتن .

ولكأنما كان ظهور المهدي وقبضه على زمام الحكم ايذاناً بتفجر ما كانت تتمخض به هذه الحياة .

فما كاد يمارس سلطانه حتى واجهته في القيروان فتنة بين أهلها وبين جماعات أنصاره من كتامة بسبب ما كان يزعمه الدعاة من مزاعم غالوا فيها ، فاستطاع بحكمته أن يسكن الثائرة . وقد طلب من الدعاة أن يكفوا عن دعوة العامة إلى التشيع . وفي الوقت نفسه أخذ الجو بينه وبين أبي عبد الله الداعي يربد ، وقد انطوى على بعض الريب والشبه التي ما زالت تنمو حتى تفجرت اعاصيرها ، وذهب ضحيتها أبو عبد الله وأخوه أبو العباس ، فغضبت جماعات كتامة لمصرع ابي عبد الله ، فكرت راجعة إلى بلادها ، وأقامت طفلاً زعمت أنه المهدي[1] ، لا ذلك الذي قتل رجلهم . وكان على المهدي أن يقمع هذه الفتنة ، فبعث ابنه أبا القاسم لذلك .

وتفجرت العصبية القبلية بين كتامة وزناته عن فتن تشتعل هنا وهنا . وكأنما تطاير شرر هذه الفتن ففجر الخصومة المذهبية بين هذه الشيعة الغالية والخوارج أولي العرق القديم في المغرب . فإذا بثورات الخوارج على هذه الدولة الناشئة ، لا تكاد تخمد واحدة حتى تثور أخرى ، إلى أن اجتمعت في الثورة العارمة التي شنها أبو يزيد مخلد بن كيداد الزناتي . وكانت قد بدأت نوعاً من المناوشة أوائل عهد المهدي في نواحي الجريد ، ثم اشتدت واستفحل أمرها بعد أن أقام أبو يزيد في تاهرت ، واجتمع عليه الناس هنالك يقدمونه و يعظمونه ، على الصورة التي نراها في كتب التاريخ ، وقد امتدت طيلة أيام القائم (٣٢٢ - ٣٣٤) ، ثم تجاوزت عهده إلى عهد المنصور بعده ، حتى

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧٣ ، اتعاظ الحنفا ص٩٧ .

استطاع ، وقد جند لها كل ما يملك من قوى برية وبحرية ، أن يقضي عليها في أواخر سنة ٣٣٥ .

وإذ كان لهذه المرحلة منذ ولي عبيدالله المهدي إلى أن انتهت حرب أبي يزيد الخارجي طابعها الخاص بها ، من حيث تلك الأحداث التي غمرتها،فقد كان من الطبيعي أن يكون للدعوة العبيدية وما كان يناظرها من الجانب الآخر المناهض لها طابع خاص ، وبذلك كان من حقها ان نفردها بالدرس عن المرحلة التالية لها ، كما افردنا المرحلة السابقة عنها .

ولعل أول ما يصادف الباحث من مظاهر الدعوة التي اصطبغت بالصبغة الأدبية ، في هذه المرحلة ، الكتاب الذي أمر المهدي بانشائه عقب استقراره في أحد قصور رقادة ، ليقرأ على منبر جامع القيروان ، وعلى منابر البلدان الأخرى في أفريقية .

وهو كتاب بليغ العبارة ، يعتبر من الناحية الأسلوبية من طراز ذلك الكتاب الذي عرضنا له من قبل ، والذي صدر عن ديوان زيادة الله الأغلبي . بل لا يبعد أن يكون محرر الكتابين واحداً . ولا يمنع من هذا تحول الدولة من الأغالبة إلى خصومهم العبيديين . فأكبر الظن أن هذا التحول لم يغير كثيراً من أصحاب ذلك الديوان . ونحن نعلم أن رئيسه في أيام الأغالبة ، وهو أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني ، ظل رئيساً له في عهد السلطان الجديد .

ثم هو - إلى جانب ذلك - مكتوب بلهجة هادئة معتدلة ، بعيدة عن الاثارة وروح الهجوم . فلا يكاد يعرض لمواطن الخلاف بين الشيعة وأهل السنة إلا في أسلوب خفيف الوقع . وذلك كقضية استحقاق الامامة التي جعلها الشيعة مدرجة إلى اعلان البراءة من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة ، وإلى ما هو أكثر من البراءة من لعنهم وتكفير من لم يدن بذلك ، مما يثير الحفائظ ويبث الضغائن . فقد تجنب الكتاب ذلك . ولم يعرض لهذه القضية التي كان عليه أن يعرض لها ، بطبيعة أنه كتاب افتتاح

عهد دولة الشيعة ، إلا في سياق الثناء على الله الذي انجز ما وعد به رسوله ، ﷺ ، بقوله : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ . وذلك « برد ارث النبوة ومقاليد الامامة إلى عترة نبيه » . وبذلك « أعز الدين والمؤمنين ، وأنقذهم من الهلكة ، في كل سكون وحركة ، بعبد الله أبي محمد ، الامام المهدي بالله ، أمير المؤمنين ، وأظهر بهجة الاسلام وجماله بقيامه ، وأخذ تراث جده النبي وابيه الوصي ، صلوات الله عليهما . وجعل أولياءه وأنصار حقه أولي البصائر النافذة من سادات العرب وانجاد كتامة . فألقت الامامة عصاها في دارها ، وقرت عينها، وأنست وحشتها ، واستقر قرارها ، وصار أمير المؤمنين طوداً منيعاً وجبلاً راسياً على الأرض ، وظلا ظليلاً لأهلها . . . فداوى الاسلام من الداء العضال ، ورتق من فتوقه ما كان منخرقاً ، وجبر من كسره ما كان لا يجبر ، ولأم من صدعه ما كان لا يلأم ، فهو مفتاح الرحمة ، ودليل الخير ، ذبا عن الحق وحياطه للدين ، وعناية بأمر المسلمين ، وبعد نظر فيما يقطع به اماني المبطلين . والحمد لله رب العالمين »[1] .

ولكن هذا الكتاب إذا كان قد صدر ، شأن أمثاله ، عن ديوان الانشاء واعتبرناه من مظاهر الدعوة ، فقد كان هنالك الدعاة الذين صاروا جهازاً رئيسياً من أجهزة الدولة ، والذين كانوا يمثلون جزءاً هاماً من موكب المهدي ، يسعون بين يديه ومعهم أبو عبد الله ، في قدومه على رقادة .

وليس بين أيدينا الآن ما يؤدي الينا صورة جلية عن هؤلاء الدعاة ، إذ لا نكاد نعرف عنهم غير قليل من الاسماء ، تجيء عرضاً في سياق بعض الأخبار ، كالشريف الذي لا نعرف من اسمه أكثر من هذا اللقب ، كما جاء فيما ذكره المقريزي عقب كلامه عن زوال ملك بني الأغلب وبني مدرار وبني رستم ، ودخول عبيد الله أفريقية ، ونزوله رقادة ، إذ يقول :

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣ .

« وأمر يوم الجمعة أن يذكر [اسمه] في الخطبة ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين في جميع البلاد . فلما كان بعد صلاة الجمعة جلس رجل يعرف بالشريف ـ ومعه الدعاة ـ ودعوهم إلى مذهبهم »[1] .

ومنهم علي بن سليمان الداعي الذي يذكره ابن عذارى في سياق الكلام عن مخالفة نفوسة على عبيد الله ، وذلك إذ يقول : « فاخرج اليهم عبيد الله علي بن سليمان الداعي ، في جمع كثير »[2] .

ومنهم أبو طالب وأبو عبد الله اللذان يجيء اسماهما في سياق خبر أورده صاحب كتاب معالم الايمان ، في ترجمته لأبي محمد بن التبان .

ولا ريب أن جهاز الدعوة قد اشتد خطره وعظمت الحاجة اليه بعد هذه الثورة التي قام بها أبو يزيد ، واستطاع أثرها أن يتغلغل إلى صفوف العلماء من أهل السنة . فلم يعد الخوارج وحدهم هم الذين يخاصمون الدولة ، فقد تجاوز الأمر هذا الحد ، وامتدت الخصومة ، فاجتذبت اليها هؤلاء الذين كانوا من قبل خصوم الخوارج ، فإذا بهم ينزعون إلى محالفتهم في معارضة هؤلاء الذين وجدوا سبيلهم إلى افريقية من خلال ضعف الأغالبة ، وانصرافهم عما يجب عليهم من جد وحزم ، وركونهم إلى اللهو ، واستخفافهم بالدين ورجاله ، وانكار الناس عليهم ، وخاصة هؤلاء الفقهاء ، هذا المسلك الذي يسلكونه في حياتهم . ومن ذلك لم يكبر في نفوسهم زوال ملكهم . ولكنهم لم يلبثوا أن رأوا من خلفوهم يريدون أن يحملوا الناس على عقيدة ينكرونها . ثم كانت هذه الثورة العارمة التي قام بها الخوارج . فكأنهم لم يروا بأساً في أن يقفوا إلى جانبهم ، وإن كانوا يخالفونهم . فإنما يجمعهم بهم الإنكار على هذه الدولة القائمة ، والرغبة في ازاحتها ، والتخلص منها .

فكان من الطبيعي ، وقد احست الدولة بذلك وعلمت مقدار خطره ،

---

(١) اتعاظ الحنفا ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، ص ٩٢ (ط القاهرة ١٩٤٨) .
(٢) البيان المغرب .

أن تتجه إلى فقهاء أهل السنة ، وتستخدم هذا الجهاز ، جهاز الدعوة ، في استمالتهم ، فإن هي استطاعت اقناعهم واستخلاصهم لها وضمهم إليها ، فقد توطد الأمر لها ، وتستطيع بذلك أن تطمئن من ناحية عامة الناس الذين يتبعون هؤلاء الفقهاء ويثقون بهم ، ويجعلون زمامهم بأيديهم .

ولعلنا نستطيع أن نرى صورة من ذلك في الخبر الذي أشرنا اليه من ترجمة أبي محمد بن التبان، وها هو ذا نورده بطوله لما يدل عليه من موقف هؤلاء وأولئك :

« كان عبد الله المعروف بالمختال ، صاحب القيروان ، شدد في طلب العلماء ، ليشرقهم (أي يأخذهم بالدعوة التي جاءت من المشرق) . فطلب الشيخ أبا سعيد ، ابن اخي هشام ، وأبا محمد ابن التبان ، وأبا القاسم ابن شبلون ، وأبا محمد بن أبي زيد ، وأبا الحسن القابسي ، فاجتمعوا في مسجد ابن الفحام ـ وسمعت شيخنا أبا الفضل البرزلي ينقل غير ما مرة أن اجتماعهم كان بدار ابي محمد بن أبي زيد ـ فقال لهم ابن التبان : « أنا أمضي اليه ، واكفيكم مؤونة الاجتماع به ، ويكون كل واحد منكم في داره » . ويقال انهم أرادوا المسير اليه ، فقال لهم : « أنا أمضي اليه ، ابيع روحي من الله دونكم . لأنه إن أتى عليكم وقع على الإسلام وهن » . ويقال أنه قال لعبد الله هذا لما دخل عليه : « جئتك عن قوم ايمانهم مثال الجبال ، اقلهم يقيناً أنا » .

وحدث بعض من حضر ، قال :

كنت مع عبد الله ، وقد احتفل مجلسه بأصحابه ، ومنهم الداعيان : أبو طالب وأبو عبد الله ، لعنهما الله ، وقد وجه في ابن التبان ، فإذا به داخل ، وعيناه تتوقدان كأنهما عينا شجاع . فدخل وسلم . فقال له : « ابطأت عنا يا أبا محمد » ، فقال : « في شغلك كنت . ألفت كتاباً في فضائل أهل البيت، أتاني المسفّر » وأخرجه من كمه ودفعه إليه. فقال له يا أبا محمد ناظر الدعاة ، قال : « بماذا ؟ » قال : في فضائل أهل البيت » .

فقال لهما : « ما تحفظان في ذلك ؟ » ، فقال له أبو طالب : « أنا احفظ حديثان » ـ ولحن ـ ثم سأل الآخر فقال : « وأنا أحفظ حديثان أيضاً » . فقال له : « هذان اللذان تحفظ أنت هما الحديثان اللذان يحفظ هذا ؟ » ، قال : « نعم ! » . قال : « هما يحفظان حديثان ـ ونطق بلحنهما ـ وأنا أحفظ من ذلك تسعين حديثاً . فالأولى بهما الرجوع إلي » .

ثم قال عبد الله : « يا أبا محمد . من أفضل : أبو بكر أم علي ؟ » قال : « ليس هذا موضعه » ، فقال : « لا بد » . ، قال : « أبو بكر أفضل من علي » . قال عبد الله : « يكون أبو بكر أفضل من خمسة جبريل سادسهم ؟ » ، فقال أبو محمد : « يكون علي أفضل من اثنين الله ثالثهما ؟ أقول لك ما بين اللوحين ، وتقول لي أخبار الآحاد ؟ » .

فضاق عبد الله ، فقال : « من أفضل : عائشة أو فاطمة . . . ؟ » ، فقال : « عائشة وسائر أزواج النبي ، ﷺ ، أفضل من فاطمة » ؛ قال : « فمن أين ؟ » ، فقال : « قال الله تعالى : يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » . فقام اليه بعض الدعاة ، فقال له : « ايما أفضل : امرأة أبوها رسول الله ، ﷺ ، وأمها خديجة الكبرى ، وزوجها علي بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وولدها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، أو امرأة امها أم رومان ، وأبوها عبد الله بن ابي قحافة ؟ » ؛ فقال أبو محمد : « ايما أفضل عندك : امرأة إذا طلقها زوجها أو مات عنها تزوجت عشرين زوجاً ، أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لمسلم ؟ » . فسكت .

ثم يقول المؤلف : وما زلت اسمع من شيخنا أبي الفضل البرزلي ينقل غير ما مرة أنه قال لهم :

« الجواب عن ذلك من عشرة أوجه : أحدها ما تقدم . الثاني أن عائشة رضي الله عنها مع النبي ، ﷺ ، في درجته ، وفاطمة مع علي بن أبي طالب في درجته . ودرجة علي لا تساوي درجة النبي ، ﷺ » ، وأنه سرد عليهم بقية الأجوبة .

فيحكى أن عبد الله قال له : « يا أبا محمد ، أنت شيخ المدنيين . ادخل العهد وخذ البيعة » ، فعطف عليه أبو محمد ، وقال له : « شيخ له ستون سنة ، يعرف حلال الله وحرامه ، ويرد على اثنتين وسبعين فرقة ، يقال له هذا ؟ لو نشرتني اثنين ما فارقت مذهب مالك » . فلم يعارضه ، وقال لمن حوله : « امضوا معه » . وخرجوا ومعهم سيوف مصلتة . فمر بجماعة من الناس ، ممن حضر لأخذ الدعوة ، وقال لهم : « تثبتوا ! ليس بينكم وبين الله إلا الإسلام ، فإن فارقتموه هلكتم »[1] .

ومهما يكن من أمر هذا الخبر ومبلغ دقته في عرض الصورة من جوانبها المختلفة ، على اعتبار ان صدوره عن أهل السنة يجعله عرضة لأن يشوبه شيء من تقديرهم لانفسهم وغضّهم من شأن خصومهم ، فيجلو الجانب الذي يحرصون على جلائه ، ويخفي أو يضعف بعض وجوه الجانب الآخر ؛ مهما يكن من ذلك ، فهو ـ فيما نقدر ـ صحيح في جملته ، فليس ما يجعلنا نشك في صحته . وغاية ما نفترضه أنه ربما أغفل بعض التفصيلات ، عفواً أو عمداً .

ويصور لنا هذا الخبر ما كان من أمر الدولة تجاه هؤلاء العلماء ، من حرص على اقناعهم بمذهبها ، واجتذابهم اليه حتى يسيروا في ركابها ، أو ارهابهم حتى ينطووا على أنفسهم ، فلا يثيروا ثائرة العامة عليهم ؛ وما كان من أمر كثير من العلماء ، وخاصة ائمتهم ، تجاه ذلك ، من حرصهم على مذهبهم والصدع بما يأمرهم به ، واعتبارهم التسليم اهداراً لامانتهم وتفريطاً فيما بين الله وبينهم .

ثم هو ـ من ناحية أخرى ـ يؤدي الينا صورة من المجالس التي كانت تجمع بين الدعاة وعلماء أهل السنة ، والأسلوب الذي كانت تتخذه ، وهو أسلوب المناظرة حول المسائل التي كان الشيعة يدعون إليها ، ويريدون أن يحملوا الناس عليها . وكان من أهمها مسألة استحقاق الامامة بما بين الائمة

(١) معالم الايمان ٣ : ١١٣ .

وفاطمة من وشيجة . وقد أعد العلماء أنفسهم لهذه المناظرة ، كما نرى فيما شغل ابن التبان نفسه به من درس فضائل أهل البيت والتأليف فيها .

ولنا أن نعتبر مثل هذه المناظرات التي كانت تدور حول (الامامة) أثراً من آثار قيام دولة الشيعة في أفريقية ، ومظهراً من مظاهر النشاط الأدبي الناشيء عن ذلك .

ومهما يكن من أمر فقد كان لموقف العلماء هذا من هذه الدولة وما جاءت به من مذهب منكر لديهم ، تحاول أن تفرضه وتحمل الناس عليه ، أثره في عامة الناس ، فهم قادتهم في أمور دينهم ودنياهم . فازوروا عنها . ورأوا هذه الدولة تتعقب هؤلاء العلماء ، ارهابا لهم . وتنكيلاً بالكثير منهم ، فتقتل هذا لأنه قرف بتفضيل بعض الصحابة على علي[1] . ويجيء عاملها بأحد مؤذني القيروان ، فيضربه بالسياط ويقطع لسانه ويقتله ، لأن قوماً من المشارقة ، اتباعها ، اتهموه بأنه خالف ما أمر به المهدي غداة بلوغه افريقية ، فأذن ولم يقل في اذانه : (حي على خير العمل) ، فاعتبر بذلك خارجاً عليها مناوئاً لها . وتقيم ابن ابي المنهال القاضي ، وكان ـ فيما يصفونه ـ رجل سوء ، فتسلطه على العلماء والصلحاء من فقهاء المالكية ، فيضرب بعضهم ويحبس البعض الآخر ، إلى غير ذلك من صور الايذاء ومظاهر الجبروت .

ولا تلبث هذه الانباء أن تشيع في أوساط العامة ، وتربو في نفوسهم واخيلتهم ، فإذا هي عندهم تمثل الاستبداد المطلق والجبروت الذي لا يزعه وازع ولا يعصم منه شيء . إلى جانب ما وقر في أعماقهم من خروجها على الدين الذي يدينون به . وبذلك فسد الجو بينها وبين جمهور الناس من أهل القيروان خاصة . حتى إذا قوي أمر أبي يزيد في ثورته على العبيديين ، فقد وقفوا إلى جانبه ، ونسوا الهوة الواسعة التي تفصل بينهم وبين الخوارج الذين قامت هذه الثورة باسمهم .

هذه الهوة الواسعة بين الخوارج وأهل السنة كان من شأنها أن تجعل

---

(١) البيان المغرب ١) ٢٦٢ .

موقف هؤلاء من ثورة ابي يزيد موقفاً دقيقاً تتنازعه الاعتبارات المختلفة ، فلم يكن من اليسير البت فيه . فأهل السنة هم خصوم الشيعة والخوارج جميعاً ، والمسافة التي تفصل بينهم وبين هؤلاء وأولئك مسافة كبيرة ، فأين ينبغي أن يكون موقفهم ؟ أيقفون إلى جانب أبي يزيد ، وهو يمثل طرف الخصومة التقليدية القديمة التي اتخذت صوراً مختلفة ، أم يقفون إلى جانب العبيديين ، ومذهبهم ذلك المذهب الذي يرونه ضلالا لا مساغ له عندهم ، ومسلكهم منهم هو ذلك المسلك المتجبر الذي لا يرعى لهم إلا ولاذمة ، أم يقفون موقف الحيدة بين هؤلاء وأولاء ، لا ينصرون جانباً على جانب . وما مبلغ جواز مثل ذلك الموقف السلبي في الدين ؟

ذلك ـ فيما نتصور ـ هو ما جعل يتنازع موقف علماء أهل السنة ، في إبان تلك الثورة . وذلك ـ فيما نحسب ـ هو ما جعل يشغلهم ، وقد أصبحت وجهات النظر المختلفة تثير الجدال والمناقشة بينهم ، فهم يعقدون المجالس للتدبر في ذلك الشأن والانتهاء إلى رأي قاطع .

ومن ذلك ما ذكره صاحب معالم الايمان ، في سياق ترجمته لأبي العرب محمد بن تميم ، حكاية عن أبي الحسن بن سعيد الخراط . قال :

« لما بلغني أن الفقهاء قد تجمعوا في الجامع ، في تدبير الخروج إلى المهدية ، في أيام أبي يزيد ، بكرت إلى الجامع ، فاصبت أبا العرب ابن تميم ، وابا الفضل الممسي ، وربيع القطان ، وابا اسحاق السبأي ، ومروان بن نصر ، وغيرهم ، جلوساً عند المنبر ، فتكلموا في الخروج على بني عبيد ، فاختلفوا وتناظروا ، حتى قال أبو العرب ابن تميم : اسكتوا ، فسكت الناس : فقال : « . . . . . . » . فلما أتم الحديث كبر الناس وعلت أصواتهم في الجامع ، حتى ارتج ، ثم خرجوا لقتال بني عبيد »[1] .

كانت هذه الثورة التي شنها الخوارج على العبيديين مثار نشاط عقلي

---

(١) معالم الايمان ٣ : ٤٤ .

وديني غمر المجالس في المساجد ، يتناظر فيها العلماء ، ويجتمع الناس حولها ، يستمعون لما يدور فيها .

وشيء آخر كان من مظاهر هذا النشاط هو المظهر الخطابي . فالخطابة هي من أول ما يصحب مثل هذه الحركة ، وهي حركة دينية وسياسية معاً ، وقد توفر لها عنصر (الجمهور) الذي كان شديد الاحساس بها ، وكان يتجمع حول هذه المجالس التي كانت تنعقد لمناقشة الموقف الذي ينبغي أن يقفه أهل السنة . فلا جرم نشطت الخطابة في هذه الفترة نشاطاً نحسب أنه كان كبيراً .

ونستطيع أن نتمثل هذه الناحية من نواحي النشاط الأدبي في الخطبة التي أوردها صاحب معالم الايمان ، لأحمد بن محمد بن ابي إلوليد ، وقال انه « ابلغ فيها . حرض الناس على الجهاد ، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب . وتلا هذه الآية : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً ﴾ . وقال : يأيها الناس ، جاهدوا من كفر بالله ، وزعم أنه رب من دون الله ، وغير أحكام الله عز وجل . وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه . . . وقال : اللهم إن هذا القرمطي الكافر الصنعاني المعرف بابن عبيد الله ، المدعي الربوبية من دون الله ، جاحداً لنعمتك ، كافراً بربوبيتك ، طاعناً على انبيائك ورسلك ، مكذباً بمحمد نبيك وخيرتك من خلقك ، ساباً لأصحاب نبيك وأزواج نبيك أمهات المؤمنين ، سافكاً لدماء أمته ، منتهكاً محارم أهل ملته ، اجتراء عليك واغترارا بحلمك . اللهم فالعنه لعناً وبيلا ، وأخزه خزياً طويلاً ، واغضب عليه بكرة وأصيلاً ، وأصله جهنم وسارت مصيراً ، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين ، وأحاديث للغابرين . وأهلك اللهم متبعه ، وشتت كلمته ، وفرق جماعته ، واكسر شوكته ، واشف صدور قوم مؤمنين »[1] .

---

(١) معالم الايمان ٣ : ٣٩ـ ٤٠ .

وهذه القطعة التي بقيت لنا من خطبة ابن ابي الوليد تمثل لنا كثيراً من العناصر الخطابية عامة ، والخطابة في هذه الظروف خاصة .

هذه صورة من الجو الذي كان يسود أفريقية في هذه الفترة ، عقب قيام دولة الشيعة : خصومات متصلة قبلية ومذهبية ، بين كتامة وزنانة ، وبين الشيعة والخوارج وأهل السنة ، يداخل بعضها بعضاً ، مجاهرة ومضمرة ، تتخذ من ميادين القتال مجالا لها ، ومن الندوات والمجالس منطلقاً لاحتجاجاتها . فكما كان من مظاهرها هذه المعارك التي اشرنا اليها ، كان من ذلك هذا النشاط العقلي والأدبي الذي رأينا شيئاً منه في مجال الكتابة والمناظرة والخطابة . وإن لم يبلغنا منه غير اثارات قليلة ، ولكن لها ، على كل حال ، دلالتها فيما نحن فيه .

وكذلك ينبغي أن يكون للشعر نصيبه في استقبال هذه الدولة الجديدة ، وفي تصوير هذه الخصومات والمشاركة في التعبير عنها . فمنْ طبيعة هذه الخصومات أن تستثير شاعرية الشعراء وتلهب قرائحهم ، وتدفع بهم في تلك السبيل التي يعرفها الشعر كل المعرفة ، من تصوير المعارك ، والاشادة بما فيها من كر وفر واستبسال وحمية ، واثارة الحماسة لها والاغراء بها ، فماذا كان نصيبه من ذلك ؟

لا نكاد نشك في أن نصيبه كان موفوراً ، إذ كنا نعلم أنه كان للعبيديين شعراؤهم الذين يمجدونهم ويشيدون بمآثرهم ويذيعون مبادئهم ، ويسبغون عليها مختلف الزخارف والتهاويل ، كما كان لخصومهم أيضاً شعراؤهم الذين يهاجمونهم ويسفهون آراءهم ، كما تشير إلى ذلك بعض الأخبار ، وإن لم يبق لنا كذلك غير القليل الذي نحاول التماسه هنا وهنا .

ولعل من أول الشعراء الذين بادروا إلى بلاط المهدي ينشدونه ما قالوا في مدحه (سعدون الورجيني) .

قال القاضي النعمان في حديثه عن دخول المهدي رقادة ، واتخاذه مجلساً يستقبل فيه خاصة أوليائه : « وقال الشعراء فيه ومدحوه . وكان أول

من مدحه منهم وأنشده من شعراء افريقية سعدون الورجيني . وكان شاعراً يمدح بني الأغلب ويلي اعمالهم . وكان قد أسر ببلد الروم وفدي ، واستؤذن له في الدخول عليه وانشاده ما قال فيه . وكان ذلك بعقب وصول الحرم ، وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم » . وكان من أصحاب هذا المجلس الذي أنشد سعدون فيه قصيدته أبو عبد الله الداعي ، فلم يكن قد قتل بعد . وقد ذكره سعدون في قصيدته ، وأشاد ببلائه في الدعوة .

وقد احتفظ النعمان بقدر لا بأس به من هذه القصيدة ، كما أورد المقريزي ابياتاً منها ، لعله صدر بها عنه .

وقد جرى الشاعر في استهلاله على نمط الشعر القديم الذي يبدأ بذكر الدور وما أصابها ، وذكر صاحبته وما دار من حوار بينه وبينها ، ليتخلص من ذلك إلى المدح ، فيقول ، وكأنما يشير إلى ما تعرض له من الأسر الذي رأينا النعمان يشير إليه :

وسفيهة هبت تصد عن النوى ويد النوى ملكت عنان مسيري
خافت علي من الخطوب ، لانني من قبل غبت فابت بعد دهور
ثم اجتمعنا بعد ذاك ، فيا لها مأسورة جمعت على مأسور

إلى أن يقول ، وقد أفضى إلى الغرض الذي بنى عليه قصيدته :

اعن ابن فاطمة تصدين امرءا بنت النبي وعترة التطهير
كفى عن التثبيط . اني زائر، من أهل بيت الوحي ، خير مزور
هذا أمير المؤمنين ، تضعضعت لقدومه أركان كل أمير
هذا الامام الفاطمي ومن به أمنت مغاربنا من المحذور

ويعقب على هذا مبشرا بتحقيق ما كان من خطة المهدي . فليس هذا المغرب الذي أمنه من المحذور إلا المنطلق الذي لا بد أن ينطلق منه إلى أرض الخلافة العباسية ، ينشر عليها ظله ، ويمنحها عدله :

والشرق ليس لشامه وعراقه من مهرب من جيشه المنصور

حتى يفوز من الخلافة بالمنى   ويفاز منه بعدله المنشور

ولم يشأ أن يغفل في قصيدته ذكر ابي عبد الله الداعي ، وبلائه في استمالة القبائل وتذليل قادتها . وكان ما يزال ركن الدولة الركين ، فقال موجهاً إلى المهدي خطابه :

يا من تخير من خيار دعاته   أرجاهم للعسر والميسور
حتى استمال اليه كل قبيلة   ورمى اليه قياد كل عثور
اشبهت موسى ، وهو حيتك التي   تلقى فتلقف افك كل سحور[1]

وليس بين ايدينا من شعر سعدون الورجيني غير هذه القطعة . وربما يرجع ذلك إلى أنه لم يدرك المهدي إلا وهو في أخريات حياته ، على عكس شاعر آخر من شعراء العبيدي ، وهو علي بن محمد الايادي الذي تدل البقايا الباقية من شعره على أنه أدرك خلفاء هذه الفترة : المهدي والقائم والمنصور[2] ، وإن خلت هذه البقايا من ذكر المهدي .

وهذه البقايا التي عني الاستاذ محمد اليعلاوي بتقصيها في مصادرها المختلفة ، وضم بعضها إلى بعض والتعليق عليها ، وتيسيرها بذلك للباحث ، والتي بلغت اثنتي عشرة مقطوعة ، تعبر عن مشاعر الشاعر تجاه بعض الأحداث التي حفلت بها هذه الفترة ، كما تصور بعض معالم الحياة فيها .

وكان من أهم هذه الأحداث ، وأكثرها إثارة لهموم الدولة وسيطرة على مشاعر الناس ، الثورة التي قادها أبو يزيد الخارجي . ثم كان من أهم وقائع هذه الثورة الحصار الذي ضربه أبو يزيد على المهدية واستمر نحو ثمانية أشهر ، لقي فيها أهلها جهد البلاء .

---

(١) رسالة افتتاح الدعوة ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ . وانظر اتعاظ الحنفا ص١٠٦ . واسم الشاعر فيه سعدون الورجيلي ، باللام .

(٢) انظر البحث القيم الذي خصه به الاستاذ محمد اليعلاوي في الفصل الذي نشره في حوليات الجامعة التونسية (العدد العاشر ، سنة ١٩٧٣) بعنوان (شعرا أفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية) .

وكان من الطبيعي أن ينفعل شاعر مثل الايادي بهذا الحصار ، وتنبعث شاعريته بما يعبر عن انفعاله به ، ولكن ما قاله في ذلك ضاع فيما ضاع من شعره . وتدلنا على ذلك إشارة جاءت في سياق كلام الحسن بن رشيق عن توارد شاعرين على معنى واحد أو صياغة متقاربة ، إذ يقول : « ومثل هذا ما جرى لعلي التونسي الأيادي ، فإنه قال قصيدته :

جادتك صادقة المخايل طوع الجنائب والشمائل
مرهاء دانية الربا ب تكاد تلمس بالأنامل

يخاطب بها أبا القاسم عبد الله وابنه اسماعيل ، ويحضه على الخروج من حصار المهدية ، إلى قتال ابي يزيد »[1] ، يعني القائم والمنصور .

على أن الإيادي يذكر في قصيدة أخرى مقتل أبي يزيد ، سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، وقد انتهت بذلك ثورة الخوارج هذه ، فيما عدا بعض حركات صغيرة لم تلبث أن قضي عليها .

ولم يبق لنا من هذه القصيدة إلا بقية من خمسة عشر بيتاً أو ستة عشر ، أوردها أبو علي منصور العزيزي الجوذري ، كاتب الاستاذ جوذر ، مولى المنصور ، في كتابه الذي أراد أن يترجم به لاستاذه ومولاه جوذر . وذلك في سياق كلامه عن خروج المنصور لمصادرة أبي يزيد ، بعد أن فك الحصار عن المهدية . « حتى نزل اللعين في قلعة بجبل وعر حصين لا يكاد أن يوصل إلى من حله ، تعرف القلعة بكيانة » . وقد آثر أن يورد في وصف هذه القلعة ما وصفها به علي بن محمد الايادي ، في هذه البقية الباقية من قصيدته ، كما وصف فيها عاقبة أمر أبي يزيد :

فارتقى الملعون من خيفته في ذرى أعيط عال مصعد
في ذرى خلقاء ملساء ، على ذلك المعقل ، ليست بصدد

---

(١) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الدكتور الشاذلي بويحيى ص ١٠١ . ط المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٧٢ .

معقل من فوقه الله ، ومن تحته المنصور في جيش معد
فارتقى المنصور بالسيف له يوم طعن كشآبيب البرد
واثقا بالله في غربته عن بني أحمد ، ناء منفرد
فإذا مخلد في كف الردى موثق الجيد بحبل من مسد
قد رمته الحرب عن غاربها واهي الركن ذليل المستند
كنفيض أخرجته أمه ليس إلا نبض عرق وجسد
فأوى من كرم المنصور في كنف رحب وخفض ورغد
طلبا منه لتبقى روحه وبقاء الروح أشفى للكمد
فأبى الله سوى اعجاله وعذاب الله للجسم أهد
فنضا عنه أديما دفسا كان قد أسرف فيه ومرد
كأديم التيس لما لم يطب ريحه جرد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفا مالئا ما بين كعب وكتد
ثم رقاه على مستحصد باسق أجرد ما فيه أود[1]

ويرى الاستاذ اليعلاوي أنه كان من جملة هذه القصيدة البيت الذي يورده صاحب سيرة الاستاذ جؤذر ، حين عرض لانتقال المهدي من رقادة إلى المهدية « التي سماها باسمه ، فكانت ـ كما يقول ـ وكما قال علي بن محمد الايادي :

دار ملك سميت مهدية فبه تعرف ما طال الأمد »

ولا نكاد نشك في أن هذه الفتنة العارمة التي ألهبت جوانب الحياة في أفريقية خاصة كانت مثار كثير من الشعر انطلقت به شاعرية الشعراء من أنصار العبيديين وخصومهم ، تصور وقائعها وتهيج المشاعر حولها . وإن كنا لا نظفر من ذلك إلا بأثارات قليلة .

ويرجع ذلك ، فيما نحسب ، إلى الأسباب العامة التي عرضت للضياع

---

(١) سيرة الاستاذ جؤذر ص ٤٨ ـ ٤٩ (تحقيق محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة) ط مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٥٤ .

آثار المرحلة العبيدية في المغرب ، وخاصة ما كان تعبيراً عن هذه الخصومة العنيفة بين الفريقين . وأول هذه الأسباب هو أن هذه المرحلة كانت مرحلة عارضة في حياة المغرب العربي ، لم تكد تطرأ عليها حتى جعلت تتقلص عنها ، بانتقال الدولة العبيدية إلى الشرق واستقرارها في مصر . وإن بقي المغرب بعد ذلك فترة غير قصيرة مرتبطاً بها ، إلا أنه فقد المركز الذي كان من الممكن أن يوجه الحياة الأدبية فيه ، ويحتفظ بالآثار الأدبية التي صدرت عنه . كما أن الحماسة لمذهب هذه الدولة قد فترت ، ثم لم تلبث أن خمدت ، ولم تعد الخصومة بحيث تهيج المشاعر وتثير القوى الشعرية .

وفوق ذلك فإن هذه الفتنة ، على عرامتها ، كانت أمراً عارضاً ، لم ير فيه أهل افريقية من رجال السنة إلا أنه انتقام من الله بتسليط الخوارج الذين يقودهم أبو يزيد على هذه الدولة . وإذا كانوا قد شايعوه في موقفه منها ، وآزروه في ثورته عليها ، فلم يكن ذلك لأنهم يدينون بمذهبه . وإنما كان ذلك رغبة في الاطاحة بها والتخلص منها . كما يمكن أن نحس بهذا في سياق بعض الشعر الذي قاله خصومها ، كقول أبي سهل الوراق :

الله باعثه ، فمن ذا صارف ما الله باعثه من النقمات
فلتقرعن عصاه كل مضلل عادى النبي وحرف السورات
ناداكم رب العباد برجفة فغدت جذوع الخيل منقعرات

وما كان سهل الوراق هذا إلا شاعراً من شعراء أهل السنة ، وتلميذاً من تلاميذ اعلامهم ، كأبي عثمان سعيد بن محمد الحداد ، وأبي الفضل الممسي . فإذا كان في شعره ما قد يدل على مشايعة الخوارج فإنما ذلك مأتاه : ليس حباً لهم ، بل كراهية لخصومهم .

ومن هنا لا نرى تعارضاً بين موقفه من العبيديين في مثل قصيدته هذه ، وقوله عندما حاصر أبو يزيد مدينة سوسة ، فامتنعت عليه ، وصده أهلها عنها :

ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعان السمر والإقدام

وجـلاد أسيـاف تـطايـر بينهـا   في النقع دون المحصنات الهام

فمشايعة هذا الشاعر للخوارج إنما هي في حدود ما هو مشترك بين أهل السنة وبينهم من العمل على ثل عرش العبيديين ، وتقويض دولتهم التي اتخذت من المهدية عاصمة لها . أما أن يغيروا على مثل مدينة سوسة ومدينة القيروان ، فذلك أمر لايدخل في نطاق هذه المشايعة . ومن ذلك كان دفاع أهل سوسة دونها ، وصدهم الخوارج عنها ، كما فعل مثل ذلك أهل القيروان ، إذ منعوا أبا يزيد من دخولها[1] .

وكما لم تبلغنا مشايعة أهل السنة لأبي يزيد الخارجي فيما بلغنا من شعر سهل الوراق ، إلا في تلك الصورة الجانبية ، كذلك لا نكاد نلمس لها أثراً فيما بلغنا من شعر أبي القاسم الفزاري ، وهو مثل سهل من شعراء أهل السنة . وقد بلغنا من شعره ما يدل على شدة لدده من خصومة العبيديين والتنديد بهم . وإن ذكر العلامة حسن حسني عبد الوهاب ، في الفصل الذي كتبه عنه ، انه « لما تغلب أبو يزيد مخلد بن كيداد الثائر البربري على أفريقية ، وافتكها من يد الفاطميين ، مدح شاعرنا انتصاره بأشعار كثيرة ثلب فيها الفاطميين »[2] . فإن ما بين أيدينا من شعره لا يدل على شيء من ذلك . وقد تقصاه الدكتور اليعلاوي .

ومن هذا الشعر قصيدة ، أو بقية قصيدة ، تبلغ سبعة وستين بيتاً ، استهلها بذكر ما تلفع في رأسه من مشيب ، وبالحديث عن أحداث الدنيا التي يحاذرها ، ويدعو الله أن يصونه منها . ثم لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله :

عجبت لفتنــة أعمت وعـمت   يقــوم بهــا دعي أو كـفــور
تــزلــزلت المــدائن والبــوادي   بهــا وتلونت منهـا الــدهــور

---

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) مجمل تاريخ الأدب التونسي ، ص ٨٤ ، مطبعة المنار بتونس ، ١٩٦٨ .

وضاقت كل أرض ذات عرض ولم تغن المعاقل والقصور
فنجي القيروان وساكنيها الاه دافع عنها قدير
أحاط بأهلها علما وخبرا وميز ما أكنته الصدور
وجللهم بعافية وأمن وأسبل فوقها ستر ستير

والذي يبدو للوهلة الأولى أنه يعني بالفتنة التي يذكرها في هذا الشعر فتنة أبي يزيد . وأن الفترة التي تقع عليها هذه القصيدة هي الفترة التي اضطربت فيها افريقية كلها ، وقد اتخذ أبو يزيد من رقادة مركزا لقيادته ، يوجه منها سراياه إلى كل ناحية ، فتمعن فيها تقتيلا ونهبا وتخريبا وإثارة للرعب ، « حتى لم يبق في افريقية معمور ولا سقف مرفوع »،على حد قول المقريزي . وإنما هو مكان واحد فقط نجاه الله من هذه المأساة وجلله بالأمن والعافية ، هو القيروان . فكانت الملجأ الذي يلجأ إليه من كتبت لهم الحياة من أهل تلك النواحي ، أو كما يقول المقريزي : « فمضى جميع من بقي إلى القيروان ، حفاة عراة ، ومات اكثرهم جوعاً وعطشاً »

وإلى هذا يشير الفزاري في سياق كلامه عن القيروان ومآثر علمائها وعبادها ، إذ يقول :

هم افتكوا سبايا كل أرض وفادوا ما استبد به المغير
كفيناهم عظائمها جميعاً فزالت عنهم تلك الشرور
وسكنا قلوبا خافقات أمات عروقها ضر ضرير
وآوينا وآسينا ، وكنا لهم أهلا ، واكثرهم شطير
فبات طعامنا لهمو طعاما هناك ، ودورنا للقوم دور
وكان لنا ثواب الله ذخرا وقام لشكرنا منهم شكور
. ولولا القيروان وساكنوها لغاب طعامهم ، والمخ رير
كأن القيروان ، وهم عراة حفاة ، محشر فيه المصير

ومن هذا نرى أن ابا القاسم الفزاري لم يمدح أبا يزيد مخلد بن كيداد في هذه القصيدة التي صور فيها بعض مظاهر الفتنة ، بل لعله هو الذي نبزه

بالدعي أو الكفور ، في أول حديثه عن هذه الفتنة التي « أعمت وعمت » .

أما حديثه في هذه القصيدة عن العبيديين ، أو بعبارة اخرى ، أهل مدينة المهدية ، فهو حديث رقيق هادىء ، لا يكاد يشي بشيء من تلك الخصومة العنيفة التي يضمرها للعبيديين ، كما تبدو في قطعته الأخرى التي أومأ إليها . إنما هو حديث المقارنة بين القيروان التي ليس لها من حافظ غير الله وإيمان أهلها وحفاظهم ، والمهدية المتبقية الحصينة بموقعها . وذلك إذ يقول :

ألا أبلغ معاشر ليس عندي	لهم عذر ، ولا فيهم عذير
نحب صلاحهم ، وهم غضاب	علينا . ان ذا جور كبير
ضمائرهم مراض واجمات	علينا . لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنا إلا لأنا	سلمنا حين عمهم الثبور
وليس لنا ، كما لهم ، حصون	ولا جبل أعاليه وعور
ولا سور أحاط بنا ، ولكن	لنا من حفظ رب العرش سور
ولا نأوي إلى بحر ، وأنا	إذا قضي القضا تنحى البحور
ولكنا إلى القرآن نأوي	وفي ايماننا البيض الذكور

ونحن بازاء هذه الظاهرة بين فرضين :

إما أن مشايعة أهل السنة لأبي عبيد لم تأخذ صورة أدبية على لسان الشعراء أمثال أبي القاسم الفزاري وسهل الوراق ، وإنما اقتصرت على مشاركتهم في قتال العبيديين ، وتحريض العامة على ألا يخذلوه . وأما أن الشعر أخذ نصيبه من هذه المشايعة ، ثم ضاع ما صدر عنه من ذلك .

وسواء صح الفرض الأول ، وقلنا أن أمر هذه المشايعة لم يبلغ المدى الذي يحمل الشعر على أن يشيد بأبي يزيد واصحابه من الخوارج ، حتى لقد خلا رثاء أبي القاسم الفزاري لأبي الفضل المسمى الذي سقط صريعاً في احدى المعارك التي كان يشارك فيها جند أبي يزيد ، من أدنى اشارة إليه أو إلى رجاله . أو الفرض الثاني وقلنا بضياع ما صدر منه ، وأكبر الظن أن من أول

ما أعان على هذا الضياع موقف الرأي العام في أفريقية من ثورة أبي يزيد بعد انقضائها وفشل الغاية المرجوة منها .

سواء صح هذا أو ذاك في تفسير هذه الظاهرة ، فإنها تدلنا على أن هذه المرحلة كانت مرحلة عارضة في الحياة الأفريقية ، حتى إذا انتهت عاد أهل السنة إلى المجاهرة برأيهم في أبي يزيد ونحلته .

ولعل ذلك يفسر لنا أننا ، حين لا نجد بين ايدينا شيئاً من الشعر ينوه بأبي يزيد أو يشيد بأصحابه ، نجد بقايا مما قيل في هجائه والتنديد به . كقول أبي جعفر المروّروذي ، أحد شعراء العبيديين في هذه الفترة :

يا خير من وهب العهود بعهده ... وحكى لنا بالعهد سيرة جده
عجباً لمعتوه يحدث نفسه ... بوساوس فيها شقاوة جده
عاداك وانسلخ الشقي من الهدى ... حتى أمرت بسلخه من جلده

أو قول محمد بن المنيب :

حل البلاء بمخلد ... وجميع شيعته النواكر
أمسى بأرض كيانة ... قد بان عنه كل ناصر
يرنو بطرف خاشع ... نظر المحاصر للمحاصر
يرنو إلى عدد الحصا ... والرمل من تلك العساكر
يا مخلد بن سبيكة ... يا شر بيت في العشائر
ذق ما جنته يداك قبـ ... ـل من الكبائر والصغائر
ذق هول شقك للبطو ... ن وما ارتكبت من الجرائر
يا شر من بكيانة ... وكيانة شر البرابر
انظر إلى القفص الذي ... لا بد فيها أنت صائر
وانظر إلى ايديك فيه ... ومؤنسيك ومن تجاور
قد طال شوقهما إليك ... فزرهما يا شر زائر

إلى غير ذلك مما عني بتقصيه الدكتور اليعلاوي في فصله : (شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية)

ومعنى هذا أن الجو الذي ساد أفريقية كان يأذن ببقاء مثل هذا الشعر ، حين لم يأذن ببقاء ما لعله قيل في التنويه بأبي يزيد وقومه .

وكذلك اذن هذا الجو ببقاء بعض ما قيل في مدح العبيديين . ولعل مما أعان على بقاء ما كان من هذا المدح معبرا عما كان يعتقده فيهم بعض شيعتهم ما كان يحمل عند أهل السنة من دلالة صريحة على ما يرمونهم به من غلو في الوضع الذي يدعونه لأنفسهم ، كهذه الأبيات التي قالها أحد شعرائهم عند حلول المهدي رقادة :

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصفي	حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ريح

أو هذه القطعة الأخرى التي قالها شاعر آخر حين انتقل المهدي إلى المهدية ، وأوردها ابن عذاري « ليستدل بما فيها على ما كان يستحله ويجوز عنده من الأشعار » :

ليهنك ، أيها الملك الهمام ،	قدوم فيه للدهر ابتسام
حططت الرحل في بلد كريم	رعته لك الملائكة الكرام
لئن عظم الحرام وما يليه	كما عظمت مشاهدة العظام
لقد عظمت بأرض الغرب دار	بها الصلوات تقبل والصيام
هي المهدية الحرم الموقى	كما بتهامة البلد الحرام
كأن مقام ابراهيم فيه	ثرى قدميك إن عدم المقام
وان لثم الحجيج الركن أضحى	لنا بعراص قصركم التثام
لئن شاب الزمان وشاب ملك	دعائمه ، إذا عجمت ، حطام
لملكك ، أيها المهدي ، ملك	غلّام ، والزمان به غلام
لك الدنيا ونسلك حيث كنتم	فكلكم لها ابدا امام

وعن مثل هذه الصفات التي كان يخلعها على المهدي من كان يحف به من شعراء وبطانة ، فتجعله تجسيدا للألوهية ، أو تجعله وارثاً للنبوة ، وتجعل

مدينته حرما كالبلد الحرام في مكة ، له مثله شعائره ، والتي كانت ، في حقيقتها تعبيراً عن المواريث القديمة التي اسلفنا الاشارة اليها ، وإلى مداخلتها بعض حركات التشيع ، صدر كثير من الشعر الذي قيل في هجائهم ، وبقيت لنا منه بقية ، كهذه القطعة من شعر أبي القاسم الفزاري ، والتي أومأنا من قبل ، إليها :

عبدوا ملوكهم ، وظنوا أنهم	نالوا به سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم	فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في	أحكامهم ، لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن اسود نابحا	وابا عمارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم ، وتأخروا	عمن أصارهم الاله نجوما
يا ليت شعري من هم إن حصلوا	دينا ، ومن هم أن عددت صميما
أمن اليهود ، أم النصارى ، أم هم	دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابين أم من عصبة	عبدوا النجوم واكثروا التنجيما
أم هم زنادقة معطلة رأوا	أن لا عذاب غدا ولا تنعيما
أم عصبة ثنوية قد عطلوا النو	رين عن ظلماتهم تعظيما
من كل مذهب فرقة معلومة	أخذوا بفرع وادعوه أروما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم	وبشركهم حقبا ، وكان رحيما
يا رب فالعنهم ، ولقّ لعينهم	بأبي يزيد من العذاب أليما

وبعد ، فهذه بعض الصور الأدبية التي صدرت عما أشاعه قيام العبيديين في أفريقية من خصومات وفتن ، قدر ما تأذن ببيانه البقايا التي بقيت لنا ، ممثلة لهذه الناحية معبرة عنه .

ولكن العبيديين ، كما كانوا دعاة مذهب يدينون به ، ويريدون أن يحملوا الناس عليه ، كانوا أصحاب دولة كهذه الدولة التي يريدون أن يخلقوها في المشرق والأندلس ، ولهذه الدولة بلاطها الذي ينبغي أن يزدهر ويتألق ، فيكون له شعراؤه الذين لا يقفون بشعرهم عند هذا الجانب الديني أو السياسي ، ولا يقصرونه على مثل هذه الخصومات يشاركون فيها

ويخوضون مع الدعاة غمارها، بل يذهبون به في مذاهب الشعر المختلفة ، ويجعلونه معرضاً لبراعتهم الفنية ، ويسبغون به على مجلس الخليفة ذلك البريق الذي تشع به قرائحهم ، ويصورون له ألوان الحضارة التي استحدثتها هذه الدولة .

ولا ريب عندنا في أنهم استطاعوا أن يوفروا لدولتهم هذا المظهر من مظاهر السلطان ، وهذا اللون من ألوان الترف ، وأن شعراءهم الذين أشرنا إلى بعضهم استطاعوا ـ إلى جانب ما قاموا به من المنافحة عنهم ـ أن يحققوا هذه الغاية ، على وجه ما . وإن كانت عوامل الضياع قد عدت على آثارهم .

على أنه قد بقي لدينا ، لحسن الحظ ، ما يمثل هذا الجانب من جوانب الحياة الأدبية في شعر أوفر هؤلاء الشعراء حظاً في مقاومة شعره لأسباب الضياع ، وهو علي بن محمد الأيادي

وإذا كان الأيادي ، وقد عرضنا له في كلامنا عن أثر فتنة أبي يزيد في الحياة الأدبية ، قد عاصر ، كما يقول الدكتور اليعلاوي ، خلفاء بني عبيد الأربعة : المهدي والقائم والمنصور والمعز ، فالذي يبدو لنا أن مكانه في بلاطهم قد أخذ صورته الواضحة منذ عهد القائم ، أبي القاسم محمد ابن عبيد الله الذي ولي الخلافة بعد موت أبيه سنة ٣٢٢ .

وكان من أول ما فعله القائم بعد توليه الخلافة أن أخذ في تحقيق ما اختطه ابوه ، حين شرع في بناء المهدية ، من أن تكون دولته دولة بحرية عظيمة الشأن ، وأن يجهزها بما يمكن لها من ذلك ، فبنى أسطولا قويا استطاع أن يفرض به نفوذه على البحر ، وأن يسيره إلى شواطىء ايطاليا ، فيبلغ مدينة جنوة . كما استخدمه في حربه مع أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وكان له أثر حاسم فيها .

وكان هذا الأسطول من مظاهر السلطان التي أثارت شاعرية الإيادي . فخصه في إحدى مدائحه للقائم بلوحة رائعة صوره فيها تصويرا بارعا ، في

ثمانية وعشرين بيتا ، أبقى عليها احتفاء ابي اسحاق الحصري بها ، وتأديته لها في كتابه (زهر الآداب).

وهي لوحة لا يكاد الماثل امامها يمل النظر اليها ، وترديد الطرف بين أجزائها المتلاحمة ، وهي تعرض عليه صورة واضحة الخطوط ، ناصعة العبارة ، قوية الايحاء ، لهذه السفن الماثلة على مياه الخليج ، منتصبة الصدور ، بشرعها ومجاديفها ، وملاحيها ومقاتليها ، وأدوات الحرب التي جهزت بها . وقد استطاع الشاعر أن ينفخ فيها روح الحياة . فإذا هذه المجاذيف ، مثلا ، وقد صورها تصويرا كاشفا بقوله :

كقوادم النسر المرفرف عريت ... من كاسيات رياشه المهذب

في حركة دائمة ، سواء أمسك بها الملاحون أم أطلقوها :

تحتثها أيدي الرجال إذا ونت ... بمصعد منه بعيد مصوب
خرقاء ، تذهب إن يد لم تهدها ... في كل أوب للرياح ومذهب

وإذا هذه النار اليونانية التي جهزت هذه السفن بها تنطلق في الجو قذائفها ، حتى لتبدو لعين الناظر إلى مشهدها ، أو القارىء للأبيات التي مثلتها ، وكأنها حقيقة ماثلة ، لا صورة مرسومة :

وكأنما جنّ ابن داود هم ... ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها ، فتقاذفوا ... منها بألسن مارج .متلهب
من كل مسجور الحريق إذا انبرى ... من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان ، كأنه ... صبح يكر على الظلام الغيهب

إلى غير ذلك من الصور النابضة بالحياة التي يقدم بها الأيادي ذلك الاسطول ، والتي يفترض الدكتور اليعلاوي بحق أنه يصف بها « استعراضا بحريا بمناسبة عيد من الأعياد »، والتي تكشف عن عبقرية الإيادي في الشعر التصويري ، كما تبدو في هذه القصيدة ، وفي غيرها مما بقي لنا من شعره الذي يمثل هذا الفن عنده ، كالقطعة التي احتفظ لنا بها الحصري أيضا في

صفة فرس الأمير جعفر أحد ابناء القائم ، كما احتفظ لنا ، مما يقع في هذا الباب ، بشعره « يصف دار البحر بالمنصورية » وذلك في سياق مدحه للمعز .

وبهذا الذي حاولنا ، قدر الطاقة ، أن نقدم به صورة الحياة الأدبية في الفترة الأولى من مرحلة التشيع في المغرب العربي ، نرجو أن نكون قد وفقنا في عرض هذه الصورة فيها ، لننتقل إلى الفترة التالية لها ، بمشيئة الله وعونه وتسديده .

* * *

الفصل الرابع

الحياة الأدبية
في عهد المعز لدين الله الفاطمي

تلى هذه الفترة التي انتهت سنة ٣٣٦ ، بانتهاء الصراع المرير الطويل المتصل بين خلفاء بني عبيد ، وأبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري ، وسائر جماعات الخوارج في افريقية والمغرب الأوسط ، فترة أخرى ، تخالفها في طابعها الغالب عليها ، امتدت خمسا وعشرين عاما ، منذ ذلك التاريخ حتى ارتحال الدولة العبيدية عن المغرب ، وانتقالها إلى مصر ، لتتخذ منها مقرا لها ، ومركزا لنشاطها ، ونقطة وثوب لتحقيق ما تضمره من مطامح ، وترسمه من خطط .

وكان يلي أمر المغرب في هذه الفترة المنصور بالله ، الذي خلف أباه القائم بأمر الله ، قبل بدء هذه الفترة بعامين ، أي سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة ، إذ كان قد رأى من السداد وتمام التدبير ، وهو في غمرة قتال أبي يزيد ومطاردته ، ألا يشيع خبر موت أبيه إلا بعد أن يفرغ مما هو منتصب له مستغرق فيه . حتى إذا اظفره الله بعدوه ، وتعقب فلول الخوارج المناهضين له ، المناوئين لحكمه ، فقطع دابرهم ، واطمأن الى استقرار الأمر ، اخذ طريقه إلى المهدية ، فأظهر ما كان أخفاه من موت أبيه ، واتخذ مكانه في قصر الخلافة معلنا نفسه خليفة له ، يمارس سلطانه ، ويوطد مكانه ، ويأخذ في تنفيذ ما كان عقد النية عليه ، من إنشاء مدينة تحمل اسمه ، تذكارا لهذا النصر الحاسم الذي اتيح له ، فيسميها (المنصورية)، ويقيم بها بقية

حياته ، وكانت هذه البقية خمس سنوات ، أفضى الأمر بعدها إلى ابنه ، ابي تميم معد . الذي يلقب بالمعز لدين الله . وكان إذ ذاك شابا في أوج شبابه ، في الرابعة والعشرين من عمره . وقد ظل يلي أمر المغرب ، مقيما بافريقية إلى أن اكتهل ، واصبح في الرابعة والأربعين ، فتحول إلى مصر ، كما قلنا ، وانقضت بذلك هذه الفترة .

وإذا أردنا أن نتمثل العوامل التي صدرت عنها أوضاع المغرب ، أو افريقية خاصة ، وصور الحياة بها في هذه الفترة ، وجدنا أن أكثر ما كان يسيطر عليها ويوجهها هو انهاء تلك المحنة التي اطبقت عليها ونكرت حياتها ، خمسة عشر عاما أو نحوها ، وما نشأ عن ذلك من ردود فعل ، ثم شخصية المعز الذي ولي أمرها وأخذ بيده زمامها ، وما كانت توجه إليه سياسته وملكه .

فقد كان من ردود فعل هذه الحرب التي اخذت بأكظام الناس زمنا غير قصير ، والتي اجتمعت عليهم ويلاتها وبأساؤها ، مع صرامة المنصور وعنفه وقسوته ، انه ما كادت ترتفع هذه الكظامة عنهم ، حتى أخذت النوازع الحبيسة تنطلق في غير تأثم ، والغرائز المكبوتة تلتمس مجالات تفرّجها في أسباب المتع المختلفة . وبهذا تحولت صور الحياة في المجتمع المغربي تحولا ظاهراً ، بما جعل يداخلها من أسباب المتعة ومظاهر اللهو ، والتحلل من قيود الدين ، والخروج على تقاليد الوقار والصيانة ، والجري مع الأهواء دون تحفظ ، مما نجد الاشارة اليه في بعض حديث المعز لدين الله عن بعض ما يعانيه في محاولة اصلاح المجتمع ورده إلى الجادة ، معددا ما داخله من أنواع الزيغ وصور الانحراف والخضوع للهوى ، فيقول ، فيما يقول : « . . . وآخر في لهو وشرب ، وسماع وعبث ، وطرب ، ومجانة وخلاعة ، وانتهاك حرمة » .

وأخرى أنه في مثل هذه المحنة التي ابتليت بها البلاد ، واحتدمت فيها الخصومة ، والتحم فيها القتال متخذا شتى الصور ، تضطرب الأمور وتختلط ، وتتحلل القيم ، وتنبهم المعالم ، وتضيع الحقائق ، وينشط الخيال ،

وتكثر القالات والترهات ، سواء في هذا الجانب أو ذاك . وكل منهما يحتاج إلى من يخذل عنه ، الا يكن بالحق فبالباطل ، ويثير الحماسة فيه غير متحرج ولا متثبت . فإذا انتهت هذه الحرب التي نشطت فيها الأوهام ، وتغلغلت ، فقد بقيت آثارها هذه ، واتخذت صورة الحقائق التي يعسر دحضها .

وقد كان مما اقتضته هذه الحرب الضروس التي خاضتها الدولة بكل قواها ، وجندت لها كل وسائلها ، أن عظم شأن نظام الدعوة ، واشتد خطره ، فكثر الدعاة ، وانبث فيهم من خلطوا مبادىء المذهب بأوهامهم ، ومن لم يتحرجوا في سبيل ما يدعون إليه من الغلو والاسراف فيه . وإذا كان نظام الدعوة هذا قد بادر إليه الفساد من قبل ، فتسلل إليه ما جعله ينحرف عن نصابه ، ويشوه حقيقة التشيع كما كان يراها الأئمة ويقفون عندها ، فان ظروف تلك الحرب وملابساتها قد ضاعفت من ذلك الفساد ، وبالغت من خطره وسوء أثره .

وفي كثير من أحاديث المعز التي يحكيها لنا القاضي النعمان ما يدل على هذا الدرك الذي بلغه بعض الدعاة . من ذلك ما يحكيه عنه ، إذ كان يسايره ذات مرة ، « فذكر ما ينسبه إلى الأئمة من يتسمى بولايتهم ، ويدعي الدعوة إليهم ، مما بعد ونأى عنهم ، من الباطل الذي برأهم الله منه ، ونزههم عنه ، وما ينحلونهم اياه من الخروج عن حد مراتبهم التي أقامهم الله لها ، إلى ما يخرج عن ملة جدهم ، ويقطع عن دعوته التي نصبهم الله لاحياء ما أمات المبطلون منها ، وغيره المبتدعون من سننها ، وجعلهم حفظة لها . فلعن ، صلى الله عليه ، من فعل ذلك منهم ، وقال به ، ونسبه إلى أئمة الهدى » .

ثم قال المعز : « واعجب مما ينتحله هؤلاء الفسقة ويعتقدونه ، من تبديل دين الله والخروج عنه ، وإضافة ما يذهبون إليه من ذلك الينا ، أن بعضهم ربما تجرأ علينا باظهار ذلك الينا ، ومراسلتنا ومكاتبتنا بما زخرفه من باطله وكفره بالله وبرسوله محمد جدنا ، صلى الله عليه ، وما بسط في قوله من تغيير شريعته وهدم ملته ، وابتداع بدع يبتدعونها في دين الله ، من ذات

انفسهم ، ومما يتعلقون به ، مما يأخذونه من انتحال ملل أهل الكفر وزخاريف باطلهم ، فيبسطونها في كتب يؤلفونها ، وينسبون ذلك الينا . حتى إن بعضهم كتب إلينا يذكر أنه أقام شريعة وأكدها بحيل تقبلها العقول ، ولا يدفعها من سمعها ، ولا ينفك عنها ؛ وألف لها كتابا كالقرآن لشريعة الاسلام ، وأن الناموس يغشاه لذلك ».

وعقب المعز على ذلك بقوله : « والله يعلم ما داخلني من ذلك من الغم والوحشة ، واكبر ما فزعت فيها وقدرت عليه أن تبرأت إلى الله عز وجل ولعنته . وهذا من حبائل الشيطان ».

ومثل هذا النص واضح الدلالة على ما بلغه نظام الدعوة في ايام المعز من اضطراب ، وما داخله من فساد شديد ، جعل مثل هؤلاء الدعاة يندسون إليه ، ويقحمون عليه مثل هذا التجاوز المفرط والغلواء التي تسيء اشد اساءة إلى مبادىء التشيع ، كما كان يراها ائمته ، والتي جعلت المعز يختم حديثه عن مثل هذا الداعية بقوله : « لعنه الله وأمثاله ، وامكننا منهم ، ليطهر الأرض من رجسهم ، ويقطع عنا شناعتهم ، بفضله »[1] .

ومهما يكن من أسباب هذا الفساد الذي تعرضت له الدعوة ، فلا نكاد نشك في أن حالة الحرب العنيفة المتصلة التي سيطرت على أفريقية والمغرب ، واجتذبت إليها طوائفها المختلفة ، كانت من أكبر ما شارك في بلوغ ذلك الدرك الذي انحدرت اليه ، وجرف كثيرا من الدعاة في تيار الغلو الذي لم يقف عند حد ، على النحو الذي نراه في هذا النص وفي نصوص كثيرة غيره ، وهو ما يجعلنا ، انصياعا لحق العلم علينا ، أن نتحفظ أشد التحفظ في تلقي كثير مما ينسب إلى التشيع في هذه الفترة خاصة . من غير أن نبعد افتراض أن يكون لمثل هذه الأقوال التي شاعت عن الدعاة ، أثره في كثير مما صار إليه التشيع بعد .

أما الذي لا نكاد نشك فيه فهو أنه كان لهذه الدعاوى التي كانت

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠ .

تصدر عن بعض الدعاة اثرها في الصورة التي وقرت في أذهان العامة ، في هذه الفترة ، عن المذهب الشيعي ، وبذلك تغلغل هؤلاء الدعاة في المجتمع المغربي ، على أنهم وجه ذلك المذهب ولسانه المعبر عنه . فلا جرم كانوا بذلك من أخطر الأسباب التي تعلق بها خصومه واعتمدوا عليها في النيل منه والتنشيع عليه . كما كانوا من أقوى العوامل التي جعلت تدفع الناس إلى الصد عنه والنفرة منه .

وقد كان ذلك من أشد ما يشق على المعز ويهيج كمده . فقد كان يدرك تماماً ما يجره هؤلاء الذين يسميهم دعاة السوء عليه ، وعلى المذهب الذي قامت عليه خلافته . وهو ما يصرح به في غير موطن . من ذلك قوله ، بعد أن فرغ من مجلس خلا فيه طويلا اليهم : « إنه لم يؤخر الناس إلا دعاة السوء [عن الاستجابة] إلينا . فلا ، والله ، ما هم لنا بدعاة ولا أولياء ، بل هم اعداء الله وأعداؤ نا ، والصادون عن الله . ولو رأى الناس فيهم خيرا ، وسمعوا منهم قولا حسنا ، وأدوا إليهم عنا ما أودعناهم ، وبلغوا عنا ما حملناهم ، لكان الناس اسرع إلينا من الطير إلى وكره ، والماء إلى مقره . ولكنهم حرفوا وبدلوا ، وفتنتهم الدنيا بعاجل حطامها ، وزين لهم الشيطان اقتراف آثامها ، فضلوا وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، وبعد عنا محلهم ، وصعب علينا أمرهم . فإن رمنا صلاح ناحية أفسدوها ، خفنا فساد أخرى ، فأعرضنا عنهم ، وتركناهم في غيهم يعمهون . . . الخ »[1] .

وما أكثر ما في مثل هذا النص مما يستحق التأمل والوقوف عنده ، لولا أن ذلك يقطعنا عن مسار هذا البحث . ولعلنا نعود إليه ، إن شاء الله ، في بحث نخصه به .

وكما كان لسني حرب أبي يزيد أثرها فيما أصاب المجتمع المغربي من تحلل ، وفيما انحدر إليه دعاة الشيعة من درك بعدوا به عن مبادىء المذهب وحقائقه ، كذلك ضاعفت هذه الحرب التي شارك فيها فقهاء أهل السنة ،

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

ووقفوا فيها إلى جانب الخوارج ـ كما رأينا من قبل ـ من الجفوة بين عامة الأفارقة وبين أصحاب ذلك النظام الجديد ، وفسحت من الهوة التي تفصل بينهم ، وقللت من فرص التلاقي بين هؤلاء وأولئك . فكان ذلك مما فسح المجال لكثير من الخيالات والافتراءات والترهات ، ينسبها كل فريق إلى الآخر وينال بها منه ، ومكن لها من أن تتسلل في يسر وطواعية إلى أذهان الناس ، وأن تتوالد فيها وتتكاثر ، دون عائق يعوقها ، أو صاد يصدها ، أو معقب يعقب عليها ، فتشيع في الناس ، كأنها حقائق ثابتة ، وأمور لا سبيل إلى المجادلة فيها . ولعله من أجل ما وقر من ذلك في أذهان أهل السنة ، أو من يسميهم الشيعة بالعامة ، كان وصف المعز لهم بأنهم « حمير جهال » ابتلاه الله برعيهم[1] .

هذه ، فيما استبان لنا ، بعض خطوط الوضع السائد في أفريقية خاصة ، في أعقاب تلك المحنة التي ابتليت بها في حرب أبي يزيد ، وقد اتيح لها من المعز لدين الله الذي ولي أمرها ، بعد خمس سنين من انقضاء تلك المحنة ، شخصية جديرة بمواجهة ذلك الوضع ، مواجهة الحاكم المسؤول عن رعيته ، لا مواجهة صاحب المذهب الذي لا يكاد يرى فيما يلي من الأمر غير مذهبه .

ولعل الأصل في ذلك يرجع إلى ما فطر عليه من زكانه ولقانة ، وللنشأة العقلية التي أخذ بها ونشأ عليها . أخذه بها أبوه المنصور ، كما يبدو في بعض ما يحكيه عنه . ثم لم تلبث أن صارت ديدنه، بعد أن ولي الخلافة . وقد جعلته هذه النشأة العقلية جيد النظر ، مرن التفكير ، صادق البصيرة ، واسع الأفق . ثم لما انطبعت به حياته من الميل إلى التأمل واستبطان الظواهر والبحث عما وراءها من حقائق ، حتى إنه ليقول عن نفسه ، فيما يحكيه القاضي النعمان عنه : « والله اني لأجد من اللذة والراحة والشهوة في النظر في الحكمة ما لو وجده أهل الدنيا لاطرحوها له . ولولا ما أوجب الله ، سبحانه ، من أمور الدنيا لأهلها ، واقامة ظاهرها ، ومصالحهم فيها ،

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٩٦ .

لرفضتها للتلذذ بالحكمة ، والنظر فيها . وإن كان الذي قلدته من أمور الدنيا والنظر فيه حكمة بالغة لمن أبصر ، وحجة لمن تدبر ونظر »[1] .

فبهذا الذي نشأ عليه ، فانطبعت به نفسه ، واتجهت اليه ملكاته ، من النظر والتأمل ؛ جعل يمارس ما وكل إليه من شؤون الحكم ، ومن النظر في شؤون الرعية . فلا جرم كان نظره أدق واشمل وأوسع من أن يقف عند المسائل المذهبية ، يتقيد بها ، ويلتزم حدودها ، ويسلمها مقادته ، ويتخذ منها معياره للحكم والتقدير .

وبهذا الاتجاه العقلي القائم على النظر في الظواهر واستبطان ما وراءها كان رجلاً واقعياً في معالجته ما يعرض له مما أسند إليه ، لا يجمح ولا يشتط . وإنما يقدر الأمور بما يراه فيها ، وما يؤدي اليه تأمله مختلف وجوهها وشتى جهاتها . وبهذا استطاع أن يواجه أحوال المجتمع التي نشأت عن تفجر الغرائز المكبوتة بعد انتهاء محنة حرب ابي يزيد مواجهة متزنة لا تذهب بها الأهواء ، أو تتحكم فيها الآراء المجردة ، وأن يصطنع في معالجة الأمور سياسة جديدة ، ترمي أول شيء إلى أن تعفي على ما تركته تلك الحرب من آثار ، ويمسح بها على ما نشأ عنها من احقاد واحن ، كما يمكن أن نتبين هذا في الحديث الذي عقب به ، في أحد مجالسه ، على ما ذهب إليه أحد أصحاب ذلك المجلس ، من اصطناع سياسة المنصور المتسمة بالعنف والشدة ، ازاء أهل الأذى والبغي والفساد في الأرض ، إذ يقول :

« إن الوقت الذي فعل فيه ذلك المنصور وقت كان يحسن فيه ذلك ، لما طبق الأرض من البلاء ، وعظم على الناس فيه من المحن . فلم يكن ينبغي أن يدفع ذلك المكروه إلا بمثل ما دفعه عليه السلام به . فأما اذ أزال الله ، عز وجل ، تلك المحنة ، وأطفأ نار تلك الفتنة ، فإن الذي ينبغي أن نقابل به النعمة أن نصفح عما كان لنا أن نصفح عنه ، مما الجناية فيه علينا دون غيرنا ، مما لا يخشى له سوء عاقبة من الأمر ، ونكل الانصاف في ذلك إلى

---

(١) المجالس والمسايرات ص ٩٤ .

الله عز وجل ، الذي أقدرنا وسلطنا وملكنا لو شئنا أن ننتصر لأنفسنا ، فيكون انتصاره ، عز وجل ، لنا أبلغ ، كما وعد بالنصر من بغي عليه . وما كان من ذلك من حقوق العباد انصفنا منه بحسب الواجب فيه . وما علمنا أو خشينا دخول الفساد من أجله ، وأن يترقى الأمر فيه ، إذا تركناه ، إلى ما هو أعظم منه ، لم يسعنا تركه ، واستعملنا العقوبة فيه ، بقدر ما يوجبه الحزم ، ويلزمه الذنب . وما كان من حقوق الله ، عز وجل ، أمضيناه على ما افترضه علينا ، واسترعانا اياه .

ولو أنا أمضينا العقوبة على كل ذنب مما العفو فيه الينا ، لأورثنا الاحن ، وسببنا أسباب الفتن ، على غابر الزمن ، وزرعنا بين الناس العداوة ، وأقمنا لهم سوق الطلب بالثارات ، في الأنفس والأعقاب ، على مر الدهور والأحقاب . لأن الذي عسى أن ينتصف اليوم منه ، بسعي ساع سعى عنه بذنبه الينا ، قد تدور له دائرة السوء على الساعي به يوماً ، فيطالبه بثأره ، أو عقبه من بعده »[1] .

فلكل حالة ظروفها الخاصة بها ، والتي تعين السياسة التي تتخذ ازاءها ، فحالة الحرب غير حالة السلام . ولكل تصرف عواقبه التي لا ينبغي لولي الأمر أن يغفل تقصيها ، أو يقصر في تدبرها وامعان النظر فيها . وإذ كانت حالة الحرب قد اقتضت من المنصور أن يصطنع ازاءها سياسة شديدة الصرامة ، لا مسامحة فيها ، وان يسلك في معالجة الأمور مسلكاً قاسياً عنيفاً ، فإن انتهاء هذه الحالة يقتضي من ولي الأمر ، في حدود ما يملك ، سياسة مترفقة ، تعالج ما ترتب عليها وما نشأ فيها ، غير ناظرة في ذلك إلا إلى الصالح العام ، وغير متقيدة بغير شريعة الله .

وإذا كانت الخصومة التي احتدمت فاتخذت صورة المواجهة المسلحة بين الشيعة وخصومهم من الخوارج ومن ناصرهم ووقف إلى جانبهم من أهل السنة قد اقتضت أن تغلب النظرة المذهبية في الحكم ، وأن تحكم في معالجة

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

الأمور ، وفي التصدي لكل من يخرج على مذهب الدولة تصدياً صارماً لا هوادة فيه . فليس من الحكمة ولا من بعد النظر اللذين اتسم بهما المعز أن يستمر ذلك . وقد انتهت هذه الخصومة في صورتها الحربية ، ولكنها لم تنته في صورتها المذهبية ، وإنما عادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل ، كامنة في النفوس ، وظاهرة في مجالس الفقهاء .

فإذا كانت دولة المعز قد أعفيت من مواجهة السخط متمثلاً في الثورة بها وشن الحرب عليها ، فإنها لتعلم أنها تواجه هذا السخط ، وقد تجرد من لبوس الحرب ، ظاهراً وكامناً ، يقوده الفقهاء ويؤرثونه . ولكن عليها قبل ذلك أن تواجه تبعتها نحو هذا الشعب الذي تتولى أمره ، مواجهة حكيمة مستبصرة ، تتسم بالانصاف . فلعل في مثل ذلك ما يخضد شوكة هذا السخط ويحول دون تفجره ، كما ينبغي أن تواجهه مواجهة تعتمد على النظر والاقناع العقليين .

أما اللون الأول من هذه المواجهة فلعلنا نستطيع أن نتمثل صورة منه في قول المعز :

« إنا لنحسن إلى الولي جهدنا ، ونصفح عن العدو ما لم ينصب لحربنا ، ونعتني بالشريف والمشروف ، ونعتد بالقوي والضعيف . فربما عاد العدو لنا ولياً ، والضعيف في نصرتنا قوياً ، والوضيع شريفاً ، والخائن عفيفاً . ولو عاجلناهم بالعقوبة لما وجدناهم عند الحاجة . ولكل في كل حال موضع يحتاج إليه فيه يسده . إن السفينة في البحر ربما احتاجت إلى أدنى حاجة صغيرة ، فلا توجد لها فتعطب من أجل عجزها في الحصول عليها ، وإن الفرس الجواد ليعدم أقل اداة من أدوات ركوبه ، فلا يمكن ركوبه ، وإن الجدار لا يقوم بناؤه إلا بالكبار من الحجارة والصغار . ولكل امرىء من الناس ، صغر أو كبر ، شرف أو اتضع ، عندنا ـ إذا أخلص نيته ـ موضع نصيره اليه ، ونرفعه ، إذا ارتضيناه ، منه إلى غيره ، حتى يلحقه ، ما لم يضع نفسه ، بأعلى درجات أمثاله ، ويوصله من الفضل إلى ما لم يخطر قط بباله . وما يضع

الناس عندنا إلا أنفسهم ، ولو احسنوا إليها لرفعناهم كلهم »[1] .

فالمعز يتخذ بهذا موقف رجل الدولة الذي ينظر إلى رعيته جميعاً نظرة سواء ، لا تفرق بين ولي وعدو ، ولا بين شريف ومشروف ، وقوي وضعيف . ولا يعتبر غير أن تمضي هذه الأمة التي ولاه الله أمورها في طريقها إلى الخير ، ولن يتم لها ذلك إلا أن يأخذ كل واحد من ابنائها مكانه المقدور له فيها ، فلكل مكانه في مسيرتها ، كما أن لكل فرصته في الترقي من منزلة إلى ما فوقها ، ما دام قد وضع نفسه في الموضع الذي يتيح له ذلك ، من القيام بما يجب عليه ، ومن إحسان النية فيه . أما العقوبة على ما سلف ، كما كان بعض اصحابه . فيما يبدو ، يشير به ، فلا مكان لها في مثل هذه السياسة ، إذ هي تجديد للأحقاد ، وحائل دون الإفادة بمن نالتهم العقوبة عند الحاجة اليهم .

وأما اللون الثاني في هذه المواجهة فلعل الأمر فيه كان موكولاً إلى الدعاة ، ولكن سوء رأيه في الكثير منهم يجعله قليل الاعتماد في مثل ذلك عليهم . بل لعله كان يرى فيمن يتولى ذلك ألا يكون من هؤلاء الذين اتخذوا الدعوة المذهبية حرفة لهم ، فانغمسوا فيها ، فجرفتهم إلى ما يجعلهم غير قادرين على النظر العقلي والاقناع المنطقي . ولا ريب أنه كان هنالك من أولياء المعز ، مثل القاضي النعمان ، من كان جديراً بأن يتولى ذلك ، وقد كان المعز نفسه ، بما نشأ عليه من ميل إلى النظر العقلي ، مهيأ لمثل هذا اللون من المواجهة العقلية . وقد جعل يشارك فيه بالمناظرة ، وكتابة الرسائل والكتب .

أما المناظرة فقد كانت من الأمور التي حذقها المعز ، إذ كانت مما حرص أبوه المنصور على أن يأخذه بالتدرب عليها ، كما نرى في هذا الخبر الذي يحكيه القاضي النعمان :

« وجلس يوماً ، عليه السلام ، وجلسنا جماعة من الأولياء بين يديه ،

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ١١٩ .

فحدثنا وأفادنا فوائد من العلم والحكمة . شكرنا له عليها ، وقبلنا الأرض بين يديه ، لما سمعناها منه . فقال :

اني لأحب أن تراجعوني فيما تسمعون ، وتذكرون من ذلك ما تشكون فيه ويشكل عليكم ، فأوضحه لكم ، ولا تأخذوا ذلك على التسليم ، وتتلقوه بالقبول ، وانتم ترون أنه يدخل فيه لقائل مقال ، أو يختلج في قلوبكم منه شيء . فإن ذلك إذا راجعتمونا فيه أبناه ، وزدناكم فيه من القول قدر ما فيه . فمن عرض له ذلك فليذكر ما عرض له ، ولا يقم على الشبهة ، فإنما نسمح لأوليائنا بالمزيد من فضل الله عندنا ، ونرغب في ذهاب الشكوك عنهم ، وازالة الشبهات عن قلوبهم . ومن ثبت ذلك في قلبه ، وقبلته نفسه ، فليحمد الله عليه . ثم إن أحب أن يسأل عن الحجة في ذلك على من خالفه ، ليقهر بها خصمه ، ويقطع بها مخالفه ، ويدفع بها عدوه، فليفعل ، يجد عندنا من ذلك ما يريده . قال الله ، عز وجل : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون ﴾.

ثم قال : لقد كان المنصور ، عليه السلام ، إذا أفادني شيئاً من العلم والحكمة ، قال لي : قل في هذا ما يعرض لك أنه يدخل فيه . فربما قلت : ما عرض لي فيه شيء . فيقول : فاسأل عما أشكل عليك منه . فلا يكون عندي فيه اشكال ، فأقول : ما أشكل عليَّ منه شيء . فيقول : قل فيه بما عسى أن ترى أن عدونا ومخالفنا يقول . فربما قلت في ذلك . فيتفجر على من تحدر العلم والحكمة ما لم أكن اقدره ، ويزيدني من الفوائد ما لم أكن أرجوه ، ويظهر لي في ذلك ما لم أكن أظنه . وهكذا فافعلوا ، تأخذوا الحكم ، وتكثر الفوائد عندكم »[١] .

فإلى جانب ما في هذا النص من دلالة على ما قدمنا تقريره من غلبة النزعة العقلية على المعز ، وذلك بما كان يدعو إليه أولياءه واتباعه من امعان النظر فيما يقول ، وعدم المبادرة بالتسليم والتلقي لأول وهلة بالقبول ، فإنه

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ١١٦ - ١١٧ .

يحمل الدلالة الصريحة على روح المناظرة عنده ، وهي الروح التي تقضي بأن يردد كل الاحتمالات الواردة ، ليفحصها وينظر فيها ، ويرى كيف يكون الرد عليها . كان هذا شأنه منذ أخذه أبوه به ، وكذلك كان يأخذ به أولياءه وأصحاب مجلسه ، فيما يورده عليهم ، ليتولوا بذلك اقناع من يعرض لهم من مخالفيهم . وبهذه الملكة التي أصابها وحذق التصرف فيها كان يدير المناظرة بينه وبين خصومه في المذهب .

وقد احتفظ لنا القاضي النعمان بما يشير إلى بعض مواقفه في مناظرة خصومه .

من ذلك ما يحكيه عنه من مناظرته مع فقيه سني . وانما يذكر هذه المناظرة ليجعلها شاهداً لقوله : « والله ما يخفي حقنا عن الناس . ولو انصفوا من أنفسهم ، واطرحوا أهواءهم ، ونظروا بعين الانصاف منهم ، لما استتر ذلك عنهم . وما يستر ذلك عن جاهلهم الا جهله ، ولا يتخلف عنه عالم إلا شحا على رياسة » ، إذ يقول في عقب ذلك : « ولقد فاوضت فلاناً ـ وذكر رجلاً من علماء العامة عندهم وأكابرهم ـ وبسطته في القول ، وما زلت به إلى أن أقر بحقنا ، واعترف به اعتراف من لم أشك أن اعترافه اعتراف حقيقة ، لا اعتراف مداراة وتقية . وانقطع ووقف بين يدي . فقلت له : ما يمنعك بعذ هذا من الرجوع عما أنت عليه إلى ما أقررت به . فلم يحر جواباً » .

ثم أورد بقية حديثه الذي أراد أن يكون ذكره لهذه المناظرة شاهداً له ، وهو أن هذا الشيخ الذي سلم له ، ثم لم يقبل أن يتحول عن مذهبه ، قد ترأس في العامة ، وذكر بالعلم فيهم . فإذا فارقهم نبذوه واستخفوا به ، وسقط عندهم جاهه . فذلك هو الذي امسكه[1] .

ومن هذه المواقف موقفه مع سني آخر ، ولكنه من رجال النحو .

وكان قد حضر مجلسه يوماً ما ، فأراد أن يتخذ من بعض الأصول اللغوية ذريعة إلى إثارة مسألة علم الأئمة ، وموقف أهل السنة من الشيعة

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ .

فيها ، وما بال رجال اللغة يأخذون اللغة « عن أهل بوادي العرب ، وهم قوم لا يعرفون من علم النحو واللغة ما يعتل به المنتحلون له ؟ » ، حتى إذا قال له ذلك السني جواباً على تساؤله : إنهم إنما فعلوا ذلك « لأنهم علموا أنهم مطبوعون عليه ، وانهم أهله ومعدنه » ، بادره المعز قائلاً : «افلسنا نحن أهل بيت رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، ولحمته وخلصاءه ودخلته . . . فلم لم يكونوا سلموا الينا كذلك ما جهلوه من أمر دينهم ، وسألونا عما اشتبه منه عليهم ، ولم يقطعوا فيما جهلوه منه بآرائهم واهوائهم »[1] .

وكما سكت الفقيه في حواره مع المعز ولم يحر جواباً ، كذلك سكت النحوي ، فيما يحكي القاضي النعمان عن المعز .

وقد يكون هذا السكوت تأدباً ، لا إنقطاعاً وتسليماً . وإن فسره المعز بأنه سكوت اقتناع ، وإن لم يحمل هذا الاقتناع احداً منهما على ترك مذهبه ، لحرصه ـ كما يزعم المعز ـ على الرياسة التي يتيحها له هذا المذهب ، دون أن يعوضه منها مكان يصيبه بين الشيعة ، لأنه دخيل فيهم ، متأخر الرتبة بينهم.

ذلك هو شأن المعز في المناظرة .

أما كتابة الرسائل وتأليف الكتب فإذا لم يتهيأ لنا أن نقف على شيء منها في الاحتجاج لمذهبه والرد على خصومه ومخالفيه ، فلعل فيما ورد في غير موضع ما يدل على أن ذلك الاسلوب كان من بعض ما يشغله ، ويستغرق بعض جهده ووقته .

من ذلك ما جاء في سياق الحديث الذي أجاب به أخد خاصته على تساؤل ابن واسول ، بعد أن جيء به أسيراً من سجلماسة ، عن أحواله في لياليه وأيامه . فبعد أن ذكر من ذلك أنه يظل مشغولاً طول نهاره بشؤون الحكم وأمور المملكة وحديث العلم والحكمة ، قال إنه « لا يزال كذلك إلى

(١) المجالس والمسايرات ، ص ١٩٩ .

الليل ، ثم يدخل ، ويحضر خاصته ، وينظر في الكتب و العلوم ، ويؤلف الكتب أكثر ليله »[1] .

كما جاء في الفصل الذي كتبه المقريزي عنه ، وقد ذكر استدعاءه شيوخ كتامة اليه ، فأدخلوا عليه ، « فإذا هو في مجلس مربع كبير ، مفروش باللبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة على خزائن كتب ، وبين يديه مرفع ودواة وكتب حواليه» . فإذا فرغ من صفة مجلسه أورد كلامه اليهم ، فكان من جملة قوله لهم : « . . . ثم رأيت أن انفذ اليكم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم . واني لا أفضلكم في أحوالكم إلا فيما لا بد لي منه من دنياكم ، وبما خصني الله به من امامتكم ، واني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب ، أجيب عنها بخطي »[2] .

وبعد ، فهذه بعض ملامح شخصية المعز ، كما اتيح لنا أن نستنطها . وجملة القول في أثرها أنها استطاعت ـ إلى حد ما ـ أن تحول الخصومة بين الشيعة وأهل السنة إلى خصومة عقلية ، وأن تسم الحكم الشيعي في تلك الفترة بسمة الرفق والتسامح ، ولكن شيئاً من ذلك لم يغن عن الدولة فيما كانت تود أن يجدي عليها هذا الأسلوب من صرف الناس إلى المذهب الشيعي ، أو إمالة قلوبهم نحوه ، حتى يصطبغ المجتمع بالصبغة الشيعية . وإن نجحت ـ فيما نحسب ـ في أن مسحت الاحقاد وأزالت الأحن ، حتى ساد المجتمع شيء من الهدوء والطمأنينة .

وكما لم تنجح سياسة المعتز في أن يصطبغ المجتمع المغربي بالصبغة الشيعية ، لم ينجح في درك ما كان يطمح إليه ويعمل له ، ويؤدي به تبعته نحو هذا المجتمع ، من اقامته على السنن القويم ، وابرائه مما جعل يرتطم فيه من مفاسد وانحرافات ، ويسوده من ألوان التحلل . وقد رأينا من قبل كيف تعرض هذا المجتمع ، بانتقاله من محنة الحرب التي اطبقت عليه نيفا وعشرة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ .
(٢) اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٦ - ١٣٧ .

أعوام ، ضيقت فيها انفاسه ، وقيدت خطاه ، إلى بحبوحة السلام ، لانطلاق الغرائز من عقالها ، دون ضابط يضبطها ويحد من نزواتها . وأوردنا دليلاً على ذلك فقرة من كلام المعز عنه .

وهذه الفقرة هي واحدة من فقرات عدة ، وجزء من حديث طويل أفضى به إلى القاضي النعمان ، يمثل ما كان يعانيه تجاه ذلك المجتمع ، ويشكو من اخفاقه في معالجته . وهي شكاة ترسم في الوقت نفسه صورة من الانحراف الذي أخذ يسود الحياة . وتبين لنا مبلغ استعصاء المجتمع المغربي على المعز ، على الرغم من محاولته الاقتراب منه . قال :

« إن الحق ثقيل إلا على من خففه الله عليه . ها نحن نريد صلاح العباد ، وندعوهم إلى ما يرضي الله عنهم ، فقل من لا يشتد ذلك ويثقل عليه . لأنا إنما ندعو منتحلاً انتحل ضلالة رآها في نفسه هدى ، فنريد أن نحول نيته عما كان اعتقد ، ونصرف رأيه عما كان انتحل ، بعد أن لعله كبر عليه ، فاتبعه غيره فيه ، وقبل عنه ما جاء به منه .

وآخر قد استحل الباطل واستمرأه ، واستخفه الشيطان له واستهواه ، فغلبت شهوته عليه ، وعظمت رغبته فيه . نريد أن نصرفه عنه ، ونمنعه منه ، ونخرج منه ما هو في يديه ونحرمه عليه ، ونحول بينه وبين لذته .

وآخر قد اكتسب من الظلم ، واستخف بالاثم ، وتطاعم أكل أموال الناس بغير حقها ، وارتكاب حرمها بغير حلها ! نقبض عن ذلك يده ، وننتزع طعمته ، ونضع من استطالته .

وآخر في لهو ، وشرب ، وسماع ، وعبث ، وطرب ، ومجانة ، وخلاعة ، وانتهاك حرمة . نريد منه الوقار والسكينة ، ونمنعه العبث والمجانة ، وندعوه إلى الصوم ، والصلاة ، والورع ، والتحرج ، والصدق ، والامانة ، والعفاف . ومذاق ذلك كله مر ، بعد ما استحلاه من الباطل وتطاعمه .

فمن ذا من هؤلاء لا يثقل عليه أمرنا؟ أم من ذا منهم من ندعوه إلى ما نريد من ذلك ، فيسارع اليه ، طيبة نفسه به ، إلا من كان الله ، عز وجل ،

قد أراد سعادته وتوفيقه ؟ ولو كنا تركنا كل امرىء في الدين وما ينتحله ، وصوبنا له من قوله ، وأريناه أنا نستحسن مذهبه ، ونقول به معه ، ونعرض عن أهل الباطل والفسق ، ونجامعهم عليه ، ونخلي بينهم وبين ما أحبوا منه ، وندع من تعدي وتعديه ، ولا نعارض فيه ، لكنا أحب الناس اليهم ، ولما ثقل شيء من أمرنا عليهم . وبمثل هذا رأى المتغلبون انهم ساسوا أمرهم »[1] .

عبارات تشي بما كان يملأ نفس المعز من ألم ومرارة ، لاخفاقه في معالجة هذه المنكرات ، وفشله في اداء تبعته ازاء رعيته جميعاً ، من منتحلي مذهبه ومن مخالفيه ، وفي السيطرة على هذا الشعب الذي لا يستسلم إلا لمن يسايره على اخطائه وانحرافاته ، ويتملق اهواءه ونزواته ،

بل إنه ليبدو أن طول ممارسة المعز للحكم ، وكثرة تجربته للناس ، وما أخذ به نفسه من التأمل والمراجعة ، وما أكسبه ذلك من نضج في الفكر ، وصواب في الرأي ، وقدرة على الاستبطان ، قد جعله لا يقر بظواهر الأمور ، ولا ينخدع بما يبديه اتباعه من استسلام له ، بل أصبح يرتاب في صدقهم وصحة يقينهم ، كما يمكن أن نرى ذلك في مثل هذا الخبر الذي يحكيه القاضي النعمان :

« وجلست يوماً بين يدي الامام المعز لدين الله . صلوات الله عليه ، وكان يوم جمعة ، وقد تهيأ للخروج ليصلي بالناس . وقرب الوقت ، فقيل له : إن المجلس قد غص بالناس وما حوله ، واحتفلوا احتفالاً عظيماً . فقال : ما كان أحسن ذلك لو كان عن نية صادقة ، وضمائر خالصة . وقبول للمواعظ ، وعمل بما يؤمرون ! ولكن أكثرهم إنما يحضر ليرانا ، ويسمع ما نقول ، ثم لا يعبأ بذلك ، ولا ينتفع به . والله لولا اقامة الفرض ، واحياء ما دثر من السنن ، ما خرجت اليهم ، ولا خطبت فيهم »[1] .

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ٢٤٦ - ٣٤٧ .
(٢) المجالس والمسايرات ، ص ١٢١ .

فها هو ذا لا يرى في هذا الجمع الحاشد الذي احتشد للاستماع إلى خطبته والصلاة معه ، إلا قوماً تدفعهم إلى ذلك الرغبة في الاستمتاع بخطابه والنظر إليه ، دون أن يكون وراء ذلك نية صادقة وضمائر خالصة . ومهما يكن من أمر هؤلاء : أكانوا من أصحاب المذهب الشيعي ، كما هو أغلب الظن ، أما كانوا منهم ومن غيرهم ، فإن هذا الخبر يدل على أنه لم يكن حسن الرأي في اتباعه الذين يمثلون - على الأقل - جمهرتهم العظمى .

وبعد ، فهذه جملة ما تأدى الينا من أمر التشيع ، وموقفه من المجتمع المغربي وموقف هذا المجتمع منه ، في فترة ما بعد حرب ابي يزيد إلى ارتحال المعز عن أفريقية ، ليتخذ من مصر مقراً له ، ومركزاً لنشاطه . فماذا كان من أثره في الحياة الأدبية هنالك ؟

لعل من أول ما يسبق إلى الخاطر ، في جواب هذا السؤال ، من صور الحياة الأدبية في هذه الفترة ، هو هذه الفقرات البارعة في مؤادها ، والرائعة في صورتها ، والتي وردت في سياق حديثنا عن المعز لدين الله ، والتي احتفظ لنا بها القاضي النعمان في كتابه : (المجالس والمسايرات) .

وتدل هذه الفقرات على أن المعز كان أديباً بنزعته وثقافته ، هذا اللون من الأدب ، وهو أدب الحديث ، يعبر به عما يختلج في صدره ويتردد في فكره تعبيراً شفافاً ، يجمع إلى الصدق جمال العبارة وقوة التأثير . وجمال التعبير وقوة التأثير هما ركنا الأدب الذي لا يتحقق وجوده بغيرهما ، وبهما يتفاوت الأدباء في مكانهما منه . ولا ريب أننا ندين بمعرفة هذا الوجه من وجوه نزوعه الأدبي إلى القاضي النعمان ، بما كان حريصاً عليه ، من تسجيل ما يتحدث به في مجالسه ومسايراته . وهو لون من ألوان الأدب الشفاهي .

ويؤدي بنا الكلام عن هذا اللون إلى لون آخر يصدر واياه من معين واحد ، وهو أدب الخطابة . إلا أن من الخطابة ما هو مرتجل ، يصدر عفو الخاطر ، فهو أمت بأدب الحديث صلة وأقرب نسباً ، ومنه ما يتهيؤ له الخطيب ويروي فيه ، وبزوره في نفسه قبل أن يؤديه . وفي كلتا الحالتين

تنفرد الخطابة عن الحديث بما يجتمع لها من جمهور يستمع إليها . وفي ذلك ، أي في روح الجماعة ، ما يضاعف انفعال الخطيب بموضوع خطبته ، ويمنحه من الحرارة ما يتردد أثره في معانيها وصياغتها وعباراتها وأسلوب أدائها .

وكما كان المعز محدثاً بارعاً كان خطيباً رائعاً ، وكما كان قوي التأثير بحديثه ، كان بالغ الاقناع والامتاع بخطابته .

وقد عرض القاضي النعمان لخطبة من خطب المعز المرتجلة ، كان قد سبقها حديث له معه ، أفاض فيه القول في الامامة ، في قديمها وحديثها ، منذ الامام محمد الباقر والامام جعفر الصادق إلى القائم والمنصور ، وقد جعل يعبر عما كان لكل منهما في صدره من هيبة وجلالة . فإذا فرغ القاضي النعمان من أداء ذلك الحديث ، قال :

« ثم حضر وقت الصلاة ، فقام وصار إلى المسجد ، ورقي المنبر ، فخطب بخطبة بليغة ، جاء فيها بفصول ما سمعنا قبلها مثلها ، واحتجاج في الامامة ، وابانة لظلم الظالمين المتغلبين » .

كما أشار بعد ذلك إلى أن استحسان الناس لهذه الخطبة ظل موضع حديثهم ، ومثار تلذذهم واستمتاعهم . وكانما ضاعف من قوتها وبلاغة عبارتها ، وما تضمنته من فصول مبتكرة في الامامة ما كان يغمر الجو العقلي والوجداني الذي سبقها من استغراق في الحديث عنها ، واستحضار لصور ماضيها وحاضرها ، وما كان يجد لدى مستمعيه ، ومنهم النعمان ، من اقبال عليه ، وتشوق له ، واصغاء إليه ، مما جعله يفيض في الحديث ويتدفق به . فكان من ذلك أن جاءت الخطبة التي ألقاها بعد على تلك الصفة التي وصفها بها النعمان ، وكان لها ذلك التأثير الذي ظل حديث الناس[١] .

أما الطراز الآخر من الخطابة فتمثله ـ فيما نرى ـ خطبة للمعز احتفظ لنا بها أبو علي منصور العزيزي الجؤذري ، فقد رواها لنا بنصها في كتابه[٢] .

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ١٢٣ـ ١٢٦ .
(٢) سيرة الاستاذ جؤذر ، ص ٧٦ ـ ٨٤ .

وهذه الخطبة التي نعرف فيها ذلك النمط من الفن الخطابي الذي يتهيأ له الخطيب من قبل هي الخطبة التي ألقاها في عيد الأضحى ، سنة احدى وأربعين وثلاثمائة . وهي أول خطبة له بعد توليه الخلافة . نعى فيها اباه المنصور ، وكان قد توفي قبل ذلك بشهر وبعض شهر ، وظل خبر وفاته ، لأمر ما ، مكتوماً ، إلى أن اعلنه ذلك اليوم أو قبله بقليل . وفيها من مظاهر الصنعة أكثر مما تعبر عنه من الحزن واللوعة .

وهي ـ كما هو الشأن في خطبة العيد ـ مؤلفة من جزأين . أما الجزء الأولى ، أو الخطبة الأول ، فقد التزم فيها موضوعات بعينها ، هي موضوعات المناسبة التي قيلت فيها ، وهي عيد الأضحى ، وما يتم فيه من حج بيت الله الحرام . فإذا كانت الخطبة الثانية فقد جعلها في الحديث عن الأئمة الذين أتاحوا له هذا المكان الذي يتبؤوه ، والموقف الذي يقفه ، منذ أفضل الوصيين إلى اميري المؤمنين : المهدي بالله والقائم بأمر الله . ثم ينتقل من ذلك إلى ذكر أبيه بقوله ، مما نؤثر أن نورده بنصه ، ليكون مثالاً من امثلة هذا اللون من ألوان الفن الخطابي عنده :

« اللهم أخصص الامام الفاضل ، والوصي العادل ، والبر الفاضل ، والغيث الوابل ، ذا الآيات المعجزات ، والعزائم النافذات ، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات ، الصابر في البأساء والضراء ، حتى طهر الأرض من جبابرة الاعداء ، عبدك ووليك ، ونجيك وصفيك ، أبا الطاهر المنصور بك ، الذي فجعتنا بفقده ، وأوحدتنا من بعده ، وأفردتنا منه وأوحشتنا ، فقبلت دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين احبته في مستقر جنتك ، وسعة رحمتك » . ثم ينتقل من هذا الدعاء له إلى مناجاته . فإذا فرغ من ذلك توجه بالحديث إلى جمهور الأولياء يدعوهم إلى الطاعة ، « وقد قرن الله طاعة أئمة الهدى بطاعة الرسل ، وطاعة الرسل بطاعته » . ثم يقول : « النور ـ أيها الناس ـ فينا مصون ، وعطاء ربك لنا غير ممنون ، فأين تذهبون ، وفي أي أرض تتيهون ، هيهات هيهات لما توعدون . فاطيعونا تهتدوا ، وتمسكوا بحبلنا ترشدوا ، واعملوا بما تفوزون به في أخراكم

تسعدوا » ، إلى أن يختم الخطبة بالتوجه إلى الله بالدعاء ، في مثل تلك الصياغة التي تحرص على السجع في غير تكلف ظاهر .

وإلى جانب هذا الأدب الشفاهي ، كما ينجلي في الحديث وفي الخطابة ، كان للمعز أدبه الكتابي ونستطيع أن نتمثله في رسائله وتوقيعاته التي أداها إلينا أبو علي العزيزي الجوذري ، وفي بعض ما احتفظ لنا به القاضي النعمان من كتبه .

وأول ذلك رسالة المعز إلى جوذر ، بعد وفاة المنصور ، وقبل اعلان نبئها، وكان جؤذر هذا من أقرب مواليه إليه ، وأخصهم به . ومن ذلك آثره بكتابة هذه الرسالة ، ينهي إليه فيها نبأ تلك الوفاة . وكان التدبير يقضي بأن تظل سرا مكتوما ، إلا من مثله ممن يملك القيام بأحكام هذا الكتمان ، أو القيام بما أريد له . فهو يقول له في سياقها : « وعليك ، فيها قبلك ، بالاحتراس ما أمكنك ، والضبط ما استطعت ، ومع هؤلاء القردة من الوصول إلينا ، والخروج من ابواب بيوتهم ، فضلا عما سوى ذلك . والكتمان ثم الكتمان ، عن الأهل والخاص والعام . وإن اتصل بهم شيء من ذلك فكذبه ما استطعت ، وخوفهم ما قدرت »

ثم يختم هذه الرسالة بالدعاء ، قائلا : « استغفر الله لنفسي من الزلل ، وأتوكل عليه في التوفيق في العمل ، بما يرضيه ويزلف لديه »[1] .

فذلك هو اسلوب المعز الكتابي ، في رسائله الخاصة . وهو أسلوب مرسل ، لا تكلف فيه ولا تعمل ، وإن كان لا يخلو من مسحة جمال ، تبدو في استرسال عباراته وانسجام جمله .

أما ما نجده في كتاب القاضي النعمان فقطعتان من كتابين يتصلان بسياسة الدولة في هذه الفترة التي ظهر فيها ضعف الدولة العباسية ، إذ لم يكن للخليفة (الطائع) أي شأن ، وانصرف الأمير البويهي (معز الدولة) إلى طائفة من الخصومات الداخلية يؤرثها ، أو إلى أهوائه وشهواته يمعن

(١) سيرة الاستاذ جؤذر ، ص ٧٤ .

فيها . في الوقت الذي أخذت فيه دولة الروم تسترد قوتها ، وتحاول أن تسترجع مكانتها ، ولم يكن يقف بازائها غير صاحب حلب ، سيف الدولة الحمداني ، فكانت الحرب ما تزال بينها وبينه ، وكانت الدائرة في اكثرها تدور عليه ، حتى استردت اكثر الثغور الاسلامية الكبرى .

وفي هذه الأثناء استطاعت أن تعقد مع المعز عقد موادعة ، أو ما يمكن أن يسمى بمعاهدة عدم اعتداء ، ارادت أن تكون دائمة ، وأصر المعز على أن تكون لمدة خمس سنوات ، فكانت كذلك

ولكن المعز لم يلبث أن رأى الروم يتجاوزون ثغور العراق والشام ، ويقتربون منه ، إذ يستولون على جنوب ايطاليا ، ويهددون الجزر الاسلامية الواقعة في بحر الروم . ومن هذه الجزر جزيرة اقريطش ، ثم إذا بالصريخ يأتيه من هذه الجزيرة التي يقول الاصطخري من أهل النصف الأول من القرن الرابع إن « سكانها جميعاً مسلمون أهل غزو ، وبين أظهرهم نبذ من النصارى ، كما يكون ببلدان المسلمين »[1] إن الروم قد أناخوا عليها وأخذوا في غزوها ، وكان ذلك سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وأن اهلها استغاثوا بالسلطان القائم في بغداد ، فلم يلتفت إليهم ، على الرغم من أن هذه الجزيرة تابعة له ، فلم يجدوا بدا من أن يتجهوا إلى افريقية ومصر ، المواجهتين لها ، والقريبتين منها ، فكتبوا إلى المعز يستصرخونه ، كما كتبوا إلى كافور يستمدونه . فأخذ صاحب مصر يرسل بعض السفن اليها ، كما أمر المعز « بالأخذ في الأهبة والعدة ، ليكون نفوذ الأساطيل إليهم في أول زمان الامكان »

ولكن كان عليه أن يتحلل من عقد الموادعة الذي بينه وبين امبراطور الروم ، فكتب إليه بنقض الموادعة المعقودة معه ، كما رأى أن يكتب إلى مصر ينهي إليها عزمه على اغاثة اقريطش ، وأنه لا بأس عليها من ذلك ، ويقترح خطة للعمل المشترك .

---

(١) المسالك والممالك ، ص ٥١ ، ط القاهرة ١٩٦١ .

أما كتابه إلى امبراطور الروم فقد خيره فيه ، أولا ، « بين أن يقلع عن حرب أهل اقريطش ، وبين أن ينبذ إليه عهده ، كما نبذ رسول الله ﷺ ، إلى مشركي العرب عهدهم ، وأرسل عليا ببراءة فقرأها في الموسم عليهم ». ثم قال ، مشيرا إلى ما يمكن أن يحتج به الامبراطور من أن اقريطش ليست تابعة للمعز بل لبني العباس :

« . . ولا ترى أن دعوة اهل اقريطش قبل اليوم إلى غيرنا ، وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام الموادعة ، بتركهم إليك ، وترك اعتراضك فيهم . إن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقهم . وإن تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم ، بتصيير الله تعالى إياه إليهم . فاقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا ، بما خولنا الله منها ، وإقامنا له فيها ، أطاعنا منها من أطاع ، وعصانا من عصى . وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ، ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك . ولو كان ذلك لكان الأمر إليهم لا لله تعالى الذي خولنا (ولا لنا ؟)، إن شاءوا أعطونا وإن أحبوا منعونا . كلا ! إن ذلك لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وهو الذي اصطفانا وملكنا واعطانا . ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا قتال من امتنع منهم علينا ، ولا رد ما انتزعوه بالغصب من أيدينا ».

وفي هذا الجزء من كتاب المعز يشرح نظرية الشيعة في حق الإمامة ، فهي أمر خوله الله لهم وملكهم إياه ، وبهذا الحق عليهم أن يبسطوا سلطانهم على أرض الاسلام جميعا . فقد صيرها الله لهم ، وإن صار بعضها إلى غيرهم . وكان ذلك هو ما يسيطر على تفكير المعز وهو يعتزم الانتصار لأهل اقريطش ، فهي جزء من مملكته هذه وإن كانت تتبع دولة بني العباس ظلما وعدوانا . ولعل تحركه هذا كان جزءا من الخطة التي كان يختطها لاسترداد ما يراه من حقه ، وتحقيق الحلم الذي كان ما زال يراود الشيعة .

وأما كتابه إلى مصر فإنما كتبه إلى أحد أوليائه فيها ، وكان قد أنبأه باستمداد أهل اقريطش صاحبها ، « وهم من أهل دعوته ، تجمعهم دعوة آل عباس ، ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير أهل مصر ، وهداياهم

تصل إلى عمالها »، وإنه عجز عن نصرتهم ، وإن كان « اظهر أنه ينصرهم ، ورمى بعض مراكب في البحر ، لما اتصل به إنكار العامة عليه ، للتخلف عن نصرتهم ». فكان من جواب المعز على هذا الكتاب قوله :

« إن الله ، سبحانه ، قد خولنا من فضله ، وأمدنا من معونته وتأييده ، بما نرى أنا ، بحوله وقوته ونصره لنا وإظهارنا على عدونا ، نكف ايدي الكفرة عما تطاولت إليه من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله . وقد انتهى إلينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد ، وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك . وأنت لعمري بذلك أجدر . لقربهم منك ، واتصالهم بك ، وميرهم بلدك ، وكونهم وإياك في دعوة واحدة . ولو أسلمناهم إليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم حجة علينا في ذلك . ولكنا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد ، ﷺ ، ولم نر التخلف عن ذلك ، وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه ».

فإذا انتهى من هذا الذي يقصد به ، فيما يبدو ، المقارنة بين موقف صاحب مصر من نجدة أهل اقريطش ، وصدوره عن قرب الدار وصلة التجارة والاشتراك في الدعوة لبني العباس ، وموقفه هو الذي يصدر فيه عن الرغبة في نصرة أمة جده محمد، ﷺ ، والاستجابة إلى استغاثة أهل اقريطش . وأول ذلك هو إزالة الجفوة التي بينهما ، وبث الطمأنينة في قلب صاحب مصر من ناحية ، حتى لا يبقى عنده ما يريبه ، فيقول :

« ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ما أملت منه ، فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ اساطيلنا يريثك عن الذي هممت به من ذلك ، وأن تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا . فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وأنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما أفاء الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا ، حتى يفتح لنا ، إن شاء الله . ثم ينصرفوا إليك على ذلك . أو يكون من أمر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك وثق به منا ، ففي تضافر المسلمين على عدوهم ،

واجتماع كلمتهم ، اعزاز لدين الله ، وكبت لأعدائه . فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل »

ثم ينتقل المعز مرحلة أخرى في أمر هذه المشاركة التي يبدو أنه كان يخطط بها لأمر في نفسه ، فليس يكفي عنده أن يجتمع الجيشان بازاء اقريطش معا ، بل ينبغي أن يجتمعا أولا على الشاطىء الأفريقي ، ثم يبدآن مسيرتهما جميعا ، جيشا واحدا ، فيقول :

« فإن وثقت بذلك ، ورأيت ايثار الجهاد ، فاعمل على أن تنفذ مراكبك إلى مرسى طبنة من أرض افريقية ، لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش ، ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى مستهل ربيع الآخر ، بتوفيق الله وقوته وتأييده وعونه ونصره » .

ثم يختم الرسالة بقوله :

« والا ترى ذلك فقد أبلغنا في المعذرة إليك ، والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا إليك . ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره ، مستغنون عنك وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة في انفاذ اساطيلنا ورجالنا وعدتنا ، وما خولنا الله إياه ، واقدرنا عليه ، مما نرى ، بحوله وقوته ، أنا نبلغ به ما نؤم إليه بذلك ، ونصمد نحوه . فبالله نستعين ، وعليه نتوكل ، وعلى تأييده نعول، وهو حسبنا ونعم الوكيل »[1] .

وليس من شأننا هنا أن نتتبع قصة اقريطش هذه ، وكيف آل امرها إلى أن وقعت في ايدي الروم وانسلخت عن الاسلام . فإنما الذي يعنينا هو أن نتبين هذا اللون من الوان الأدب الكتابي عند المعز ، ونتعرف سماته وخصائصه . ولم يكن شرحنا لظروف هذين الكتابين وملابساتهما ، إلا ليكون ذلك أهدى إلى تحقيق هذا الغرض .

وإذا كنا ندين للقاضي النعمان بأكثر ما وقفنا عليه من هذا الجانب من

---

(١) المجالس والمسايرات ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٦ .

جوانب المعز ، وبهذا اللون من ألوان الأدب في هذه الفترة ، فإن النعمان نفسه يعد من ممثلي ذلك النشاط . وإن لم يكن كتابه المجالس والمسايرات الذي كان عمدتنا فيما أوردنا غير كتاب رواية عمن جلس إليه أو سايره من الأئمة ، حرص قدر المستطاع أن يؤديها كما سمعها[1] ، فإن له كتبا أخرى من تأليفه ، تدخل في نطاق الأدب ، بمعناه العام ومعناه الخاص . ومن كتبه المنشورة التي يمكن اعتبارها لونا من ألوان النشاط الأدبي بالمعنى الأول ، وكانت من آثار حركة التشيع ، كتاب (الهمة في آداب اتباع الأئمة). أما الأدب بمعناه الخاص ، فله منه أرجوزة جعلها في سيرة المعز . وقد ذكرها في كتاب المجالس والمسايرات (ص ٤٦٢) بقوله : « وكنت قد ألفت سير المعز ، من أول ما أفضى الله بالامامة إليه ، وما وهب الله له في أيامه ، وللأمة به ، من بركته وسعادة امامته ، وما تابع فيها من المسرات ، وأولى من الخيرات ، وأوسع من العطيات ، في رجز موزون ، بقوافي مزدوجة ، وكثر الله تعالى ذلك ، وترادف منه ما أعجزني ، مع كثرة الشغل بما أنا فيه ، عن تأليفه وتصنيفه » .

ومن هذا نرى أن نشاط القاضي النعمان الأدبي كان مقصورا على الأئمة الفاطميين ، لا يتجاوزهم ، كما كانت حياته مقصورة عليهم ، منذ اتصل بالمهدي ، إلى أن ادركته الوفاة ، وهو في صحبة المعز لدين الله ، سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وبه كنت أوثق صلاته وله كان أثر ولائه . وقد بدأت صلته به في أيام أبيه المنصور ، وتوثقت على النحو الذي يشرحه بقوله : « وكان اعتمادي ، أيام المنصور بالله ، صلى الله عليه ، فيما أحاوله عنده ، وأرفعه إليه ، واطالعه فيه ، على المعز لدين الله . فما أردته من ذلك

---

(١) يقول النعمان في سياق حديثه عن مجلس حافل شهده من مجالس المعز إلى جماعة من كتامة : « فقمت كذى الثقل الثقيـل من كثير ما سمعت من الحكمة . . . وتخوفت ان انا انصرفت الى مجلس الحكم ان انساه ، أو أخل باكثره . . فاستأذنت أمير المؤمنين في التخلف عن مجلس القضاء يومي ذلك . . . وانصرفت وانا استبعد المنزل واتذكر ما جرى في المجلس . فما هو إلا أن وصلت إلى منزلي . . . فصليت المغرب والعشاء الآخرة ، وجلست اتذكر المجلس وأوقع ما حفظت منه شيئاً بعد شيء ، حتى أتيت على ما حفظته من ذلك . فأثبته في هذا المجلس . وأرجو أن قد بلغت منه جماع ما كان فيه ، وأتيت على جملة من لفظه ، وجمعت معانيه ، ان شاء الله تعالى (المجالس والمسايرات ص ٢٢٤) .

بدأته به ، ورفعته إليه ، وسألته حسن رأيه فيه . فما أمرني أن أفعله فعلته ، وما كرهه لي تركته ، فكان لي في ذلك رفد عظيم ، وفرج كبير»[1] .

وازدادت هذه الصلة توثقا بعد أن افضى الأمر إلى المعز ، فهو رفيقه في مجلسه ، وهو صاحبه في مسيرته ، وهو الاثير لديه منذ اتصل به سببه ، وهو صاحب مجلس القضاء لديه ، وهو مدون أقواله ، يتابعها حريصاً عليها ، مبهورا بها . وقد ارتبطت به كل مؤلفاته ، في هذه المرحلة من حياته .

فكتابه الذي جمع فيه أخبار الدولة إنما كتبه حسبما أشار عليه به . وكذلك كتابه في مناقب بني هاشم ومثالب بني عبد شمس[2] .

وإذا أخرج كتابه (دعائم الاسلام) فقد أشاد به المعز وأعلى قدره ، فجعله في مجلس من مجالس قصره ، وأباحه للقراءة والانتساخ والتعلم منه والتفقه به[3] .

وإذا بدأ في تأليف كتاب يكون بين أيدي القضاة والحكام والطلبة ، من أقوال أهل البيت . ورأى أن يسميه (كتاب الدينار)، لأنه قدر « أنه إذا كمل قام على من يريد انتساخه بدينار فما دونه »، رفعه إلى المعز ، يسأله قراءته عليه ، ليكون مأثورا عنه . فإذا قرأه وقع على الرقعة التي فيها ذلك ما لاحظه عليه من اعتياص بعض عباراته ، واقترح عليه أن يجعل اسمه (كتاب الاختصار ، لصحيح الآثار ، عن الأئمة الاطهار)، بدلا من أن يكون (كتاب الدينار)[4] .

هكذا كان شأن القاضي النعمان في جميع ما أشار إليه من كتبه ، في كتابه (المجالس والمسايرات). بل إن من هذه الكتب ، مما كان المعز يقترحه عليه ، ما كان يرسم له خطوطه ، ويقفه على جميع معانيه ، ويؤصل له

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥١ .
(٢) المجالس والمسايرات ، ص ١١٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠٦ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

أصوله . إذ كان يعلم أنه يدفع به إلى نمط من العلم لم يتسع فيه اتساعا يجعله يفي بما يريده منه فيه ، ويبلغ منه المبلغ الذي يرضيه . فكان من ذلك ، ومن تشجيع المعز له وحفزه ، ان جاء فوق ما أمله ، واضعاف ما توهمه ، على حد قوله[١] .

هذه بعض وجوه صلة القاضي النعمان بالمعز . وجدير بمثل هذه الصلة الوثيقة الدائمة ، وهذا الايمان المطلق بمذهب الدولة ، وهذه الاحاطة الواسعة بتاريخ الأئمة ، والاستيعاب لآثارهم ، أن يكون له أثره الكبير في نشاطه الأدبي المنبعث عن ذلك كله . وكم نود لو كانت أرجوزته التي أراد أن يخلد بها مآثر المعز لدين الله بين أيدينا . إذن لاستطعنا ـ إلى جانب ما رأينا من نشاطه الأدبي في مجال النثر ـ أن نقدر هذا الوجه من وجوه نشاطه حق قدره ، ونعرف له بالغ أثره . وكان لنا أن نسلكه في جملة من يمثلون النشاط الشعري في هذه الفترة .

وحين يحاول المؤرخ الأدبي أن يتمثل النشاط الشعري في هذه الفترة تأخذه الدهشة ، إذ لا يكاد يجد بين يديه مما يمثله ـ فيما عدا بقية قليلة من شعر الإيادي ، وقد كان ـ فيما يبدو ـ يعيش آخر أيامه ، وشعر ابن هانىء الأندلسي ـ كبير شيء .

وقد عرضنا للايادي من قبل ، وتمثلنا ما أتيح لنا من نشاطه الشعري في الفترة السابقة .

أما في هذه الفترة فلا نقع من شعره إلا على بقية من قصيدة اوردها الحصري في كتابه (زهر الآداب)، وذكر أنه قالها « يمدح المعز ، ويصف دار البحر بالمنصورية ».

أما مدح المعز فليس في هذه القطعة شيء منه غير بيت واحد جاء في سياق الوصف ، وكان مما اقتضته احدى صوره ، وهي صورة البركة التي في القصر ، وهو قوله :

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٥٤٥ .

وإن صافحتها الشمس لاحت كأنها فرند على تاج المعز ورونق

وأما الوصف في هذه القطعة فيدلنا على براعة الإيادي في هذا الفن من فنون الشعر ، ويذكرنا من هذه الناحية بقصيدته التي قالها في وصف الأسطول الذي أنشأه القائم ، والتي عرضنا لها من قبل .

ومن شعراء عصر المعز شاعر يدعى سهل بن ابراهيم الوراق ، يقول الدكتور اليعلاوي عنه إنه أدرك خلافة المعز ، وأورد ما وقف عليه من شعره . ولكن ليس في هذا الشعر ما يدل على أنه صدر عن هذه الفترة ، فيكون تعبيرا عنها ، أو متأثرا بها .

وهذه القلة القليلة التي بقيت لنا من شعر الإيادي ، إن دلت على شاعريته ، فإنها بنزارتها هذه لا تتفق مطلقا مع هذه الشاعرية التي يبدو أنها كانت ثرة خصبة . كما أنه ليس من الطبيعي أن تظهر هذه الفترة بمظهر الاجداب الأدبي ، مع ما اجتمع فيها من أسباب تدعو إلى وفرة الانتاج . ومن هذه الأسباب ما عرفناه في شخصية المعز من اتجاه ادبي وسماحة فكرية .

ولا يكاد يداخلنا شك في أن مظهر الاجداب الادبي الذي يلاحظه المؤرخ الأدبي لا يعبر عن الواقع في هذه الفترة ، وأن الشعر الذي صدر عنها وكان يردد أصداء الحياة فيها قد تعرض لأسباب الضياع . وفيما قدمنا عن الإيادي ، شاعر المعز لدين الله ، من أنه لم يبق من شعره فيه ما يقتضيه مكانه منه ، حتى القصيدة التي احتفظ بها سقط منها شعر المدح ، ولم يبق منه إلا ذلك البيت الفرد الذي جاء في سياق وصف البركة ، في ذلك ما يدل دلالة واضحة على ما أصاب الشعر في هذه الفترة :

ومثل هذا نلاحظه في هذا الخبر الذي يورده ابن خلكان في الفصل الذي ترجم به لابن عبد ربه ، صاحب العقد :

« . . . وله من جملة قصيدة طويلة في المنذر بن محمد . . . أحد ملوك الاندلس ، من بني أمية :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس

فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

قال الوزير المغربي[1] في كتاب (ادب الخواص): وقد روى أن هذه القصيدة شقت عند انتشارها على أبي تميم معد ، المعز لدين الله ، وساءه ما تضمنته من الكذب والتمويه ، إلى أن عارضها شاعره الإيادي التونسي بقصيدته التي أولها :

ربع لزينب قد درس واعتاض من نطق خرس

وهذا الشاعر هو ابو الحسن ، علي بن محمد الأيادي التونسي »[2] .

فها هي ذي قصيدة قالها الإيادي في مدح المعز ، عارض بها قصيدة لابن عبد ربه ، واستطاع أن يفثأ بها غيظ المعز ، وينهنه من غضبه وحنقه . وكان جديرا بهذه الملابسات أن تبقى عليها . ولكنه لم يبق منها غير هذا البيت ، باعتباره مطلعها أو عنوانها .

ونستطيع أن نفترض ، في غير كبير حرج ، تعليلا لهذه الظاهرة التي تثير الدهشة وتبعث على التساؤل ، أن المنصور اتجه بعد انتصاره على أبي يزيد وظفره به ، بما عرف عنه من صرامة وقسوة ، إلى خصومه يتعقبهم ، وينكل بمن يقع في يده منهم . فجعلوا ـ بطبيعة الحال ـ يتوارون ويلتزمون الصمت . فإذا جاء المعز لدين الله كانت حمية الخصومة قد فترت ، ودواعي الشعر في مهاجمته قد خبت .

أما الشعر الذي قيل في مدحه ، وفي الاشادة بمذهبه ، فإنه لم يجد من الرأي العام في أفريقية استجابة له ، ولا من الجمهور الأدبي ما يأذن له بالذيوع ، خارج الجو المقصور الذي قيل فيه . ثم لم يلبث أن لحقته الفترة التي اعقبت رحيل المعز لدين الله ، وهي الفترة التي جعل التشيع فيها

---

(١) هو ابو القاسم ، الحسن بن علي بن الحسين . ولد بمصر سنة ٣٧٠ ، وهرب منها إلى الشام في عهد الحاكم ، سنة ٤٠٠ ، ثم انتقل منها إلى بغداد ، فالموصل ، فميا فارقين بديار بكر ، وبها توفي سنة ٤١٨ .

(٢) وفيات الاعيات ، ١ :٩٣ .

يتضاءل ويفتر ، ولم يبق له في المغرب إلا دعامة ضعيفة تدعم بقاءه ، وتحفظ ذماءه . فكان من الطبيعي أن يتبدد ذلك الشعر في هذه الفترة .

وهكذا لم يبق لنا من شعر التشيع فيها غير شعر ابن هانىء الاندلسي .

وأكبر الظن أن الذي أتاح له البقاء هو المنزلة الخاصة التي كان ينزلها في بلاط المعز ، مما جعله يحتفظ به ، حتى إذا انتقل إلى مصر فقد انتقل معه ، ثم جعل يضم إليه ما كان ابن هانىء يوجه به إلى المعز ، بعد أن استقر في مصر ، في انتظار أن يلحق به .

ولا ريب أن ابن هانىء استطاع أن ينزل من المعز ومن رجال بلاطه منزلة انفرد بها ، فكان يغالي به ، ويحرص على أن يكون شاعره في المشرق ، كما هو شاعره في المغرب ، وكان يرى في جزالة شعره ، ومتانة أسره ، وروعة ديباجته ، ما جعله يؤثره ، ويرجو أن يكون له مكانه الرفيع في قصره ، حين يتبوأ في مصر مكانه ، فهو جدير ولا ريب أن يكون منافساً لشعراء المشرق ، وأن يكون أداة ذات شأن في الدعوة له .

فذلك ، فيما نرى ، بعض ما أتاح لشعر ابن هانىء أن ينفرد بالبقاء دون شعر معاصريه

الفصل الخامس

إبن هانئ الأندلسي

وابن هانىء ، أبو القاسم محمد الأزدي الأندلسي ، طراز من الشعراء غير ذلك الطراز الذي عرفته افريقية والمغرب حتى ذلك الوقت ، فقد نشأ في الأندلس ، في الفترة التي بلغت فيها أوجها في رعاية الأدب والمغالاة به ، ايام عبد الرحمن الناصر الذي ولي أمرها طيلة النصف الأول من القرن الرابع . وقد جعلت تصبح منافسا حقيقيا للعراق والمشرق عامة ، فيما أخذ يصدر عنها من روائع أدبية ، جمعت بين الروح الأندلسية ، والصياغة العربية الجزلة القوية . تنتهج نهجها في أصالة ، وعلى بصيرة . وقد بلغ الاتجاه إلى المشرق الذي كان قد بدأ منذ الفتح غايته في هذه الفترة ، وجعل يتمثل في الحرص على أن يجتمع لها من الآثار التي تمثل الفكر الاسلامي في نواحيه المختلفة ، والأدب العربي في شتى فنونه ، أقصى ما يستطاع ، حتى تم لها ذلك في صورة لم تكد تتفق لغيرها .

وحسبنا أن نعلم أن خزانة الكتب التي عني الحكم المستنصر ، وهو بعد ولي عهد في أيام ابيه عبد الرحمن ، بتكوينها ، كانت تضم اربعمائة الف مجلد . وكان فيها من دواوين الشعر ما تقع فهرسته في أربع وأربعين كراسة ، في كل كراسة عشرون ورقة ، فقد اجتمع فيها اذن التراث الشعري العربي برمته ، في الوانه المختلفة ، واتيح للناس أن ينهلوا من منهله ، وللشعراء خاصة أن يظفروا منه لشاعريتهم بما يدفع الدم دافقاً في عروقها ، ويسددها

في الطريق الذي تؤثره ، ويقدم لها من المادة الشعرية صوراً ومعاني وأساليب ما يتفق واتجاهاتها .

وإلى جانب ما كانت تزخر به الأندلس إذ ذاك من آثار المشرق الأدبية ، تتلقاها بحب وشغف ، وتتلقفها في الفة واعجاب . كانت ما تزال تستقبل من علماء الشعر وائمة الأدب من المشارقة ، كأبي علي القالي ، من يعرضون من الحياة الأدبية في المشرق صورا باهرة ، تستهوي الناس وتستجيب لتطلع الناشئة ، فيحف بهم العلماء والطلاب يأخذون عنهم الشعر العربي في انضر صوره ، ويصقلون اذواقهم الادبية ويثقفونها في مجالسهم بالثقاف المشرقي .

وقد كان هذا الاتجاه إلى المشرق ـ كما أشرنا منذ قليل ـ اتجاها قديما ، جاء مع الفتح ، ثم ما زال يطّرد ويستحكم حتى بلغ غايته في عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد بلغت الأندلس فيه قمة مجدها . وربما كان من أقوى مظاهره ، في مجال التأليف ، كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه . أحد شعرائه . وهو كتاب رائع من ناحية تمثيله للتراث المشرقي تمثيلاً بارعاً ، وتقديمه في صورة فاتنة ، لعلها من أثر الروح الأندلسية .

وفي هذه الفترة التي سيطر فيها هذا الاتجاه ، وقد اجتمعت له اسبابه المختلفة ، على الحياة الادبية في الأندلس عامة ، وفي قرطبة خاصة ـ دون اهدار للشخصية الأندلسية ـ نشأ ابن هانىء ، وعلى تلك النماذج الأدبية تفتحت شاعريته .

وكان مما يرد على الأندلس من المشرق في ذلك الوقت قصائد أبي الطيب المتنبي المرنانة ، فكانت تقع من حاسة الأدباء والمتأدبين الفنيـة موقـع الاعجاب بهـا ، والانبهار بديباجتها وصورها ومعانيها . كانت تدوي في اسماع الناس وتهز قلوبهم ، وتردد جنبات المجالس والأندلس اصداءها ، وتعكس ما ترسمه من صور البطولة العربية الاسلامية في خلال مدائح سيف الدولة . كما كانت تعرض من أبي الطيب صورة رائعة ، وانموذجا من نماذج الرجولة والاباء والطموح يثير المشاعر ويبتعث الخواطر . ولا نكاد نشك في أن ابن هانىء ،

بشاعريته المتفتحة ، وطموحه المتوثب ، وجد في هذه القصائد ، كما وجد في شخصية المتنبي التي كانت هذه القصائد تعرضها وترسم ملامحها ، ما أوقد في نفسه جذوة الشعر ، وما وجه شاعريته وجهتها ، وما بعث مطامحه وآثار نوازعه .

وكأنما جعل ابن هانىء ، منذ اتيح له أن يعرف أبا الطيب ، يرى فيه مشابه منه ، ضاعفت من تعلقه به ، وإعجابه بشخصيته ، وزادته فتنة بشعره وحرصاً عليه ، فاتخذ منه إماما له . فكما نشأ المتنبي نشأته الأولى في الكوفة ، يصارع الحياة بها ، ويتعرض فيها لما تضطرب به من مذاهب ونوازع في الدين والفلسفة والسياسة ، تفتح لها خياله ، واهتزت بها مطامحه وآماله ، فانعكست آثارها في أسلوب حياته ، وترددت بعض أصدائها في بعض ما كان يتحدث به ، وما جعل يصدر عنه من شعر يعبر به عن خوالج نفسه ، ويسوم به عيشه . وكان من ذلك ما عرضه للأقاويل المختلفة تنتابه من هنا وهنا ، وللريب تتصدى له وتحيط به ، كذلك هو في قرطبة التي غادرها إلى موطن أسرته في أشبيلية ، في غربي الأندلس ، يراجع فيها حياته الأولى ، كما غادر المتنبي الكوفة إلى حلب يستذري بأميرها .

وكما وجد المتنبي في سيف الدولة أميرا يقدره ويعرف لمواهبه حقها ، فيقبل عليه ، ويغالي به ، ويفسح له في مجلسه ، ويبوئه منه آثر المواضع لديه ، كذلك كان شأن ابن هانىء في اشبيلية حين استطاع أن يعقد صلته بأميرها ، فإذا هو جليسه وسميره ، بل أخص أصحابه به وآثرهم عنده ، وقد جعلت مواهبه الفنية تزدهر وتنطلق إلى المدى البعيد .

ولكن اشبيلية كانت تموج في ذلك الوقت بدعوات الفاطمية التي استقرت في العدوة الأخرى . وكأنما وجد ابن هانىء في مبادئها مشابه من تلك الفلسفات الباطنية التي فتن بها في قرطبة ، وأخذ بما تذهب إليه في تفسير الوجود ، فاتصلت هذه بتلك في نفسه ، وتجاوبت معها ، فإذا هو يرى نفسه في غمره الخصومة التي أثارتها هذه الدعوات ، إلى جانب ما كان قد جعل يتعرض له من حسد الحاسدين له الذين كانوا ينفسون عليه ما بلغه لدى

الأمير من منزلة . فقد وجدوا في ذلك سبيلاً منه إلى تحـذير الأمـير منه ، وإلى إثارة الغبار حوله . حتى لم يجـد بداً من أن يخلص بنفسـه ، ويعبر البحـر إلى المغرب .

ها هوذا ينتقل مرحلة جديدة نحو الفاطمية التي نفذت إليه مبادئها في قرطبة ، فلسفة عقلية ، ثم اسبغت عليها الدعوات الشيعية في اشبيلية صورة مذهبية ، استغلها خصومه وحاسدوه ، واضطروه إلى أن يلجأ إلى مواطنها ، ويعيش في غمارها . ولعله لم يأس على أن غادر تلك الحياة الطيبة الرحبة التي كان يحياها في جوار الأمير ، فإنه بهذه النقلة يراجع موطن اسلافه الذي كانت أحاديث أبيه عنه تبعث تطلعه نحوه ، وتثير حنينه إليه .

وقد اتفق أن كان بلوغ ابن هانىء المغرب في الوقت الذي وصل فيه إليه جوهر قائد المعز ، أي في خلال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة . وكان المعز قد انفذه إليه ، ليطفىء الفتن التي جعلت تندلع عليه فيه ، ويقضي على الدولة التي أعلنت مناهضتها له .

وكان هؤلاء الخوارج عليه قد توزع ولاؤهم بين خصوم الفاطميين في الأندلس والمشرق، بين الدولة الأموية والدولة العباسية . . ففي طنجة كان يعلي بن محمد اليفرني يقود حركة الثورة التي يغذيها ويؤرثها أمويو الأندلس بين قبائل زنانة والبربر ، وقد أعلن نفسه خليفة لعبد الرحمن الناصر . وفي سجلماسة كان ابن واسول ، محمد بن الفتح ، الذي كانت دولته من قبل خارجية المذهب ، وقد رأى أن يجعل ولاءه لبني العباس في بغداد ، منذ رفض دعوة الخوارج ، وتسمى بأمير المؤمنين ، الشاكر لله .

وقد كانت هذه الفتن في المغرب الأقصى مصدر قلق المعز ، فرأى أن يبادرها بجيش كثيف يتألف ، كما يقول صاحب الاستقصا ، من عشرين الف فارس ، من قبائل كتامة وصنهاجة وغيرهم ، وجعل قيادته لمولاه جوهر ، فمضى إلى سجلماسة ، فحاصرها ثم اقتحمها وقبض على ابن واسول ، ثم مضى منها إلى فاس ، فاستولى عليها ، وسار في بلاد المغرب ، حتى اذا انتهى إلى البحر المحيط ، وتم له بذلك القضاء على تلك الفتن

وإقـرار سلطان المعز على المغرب على النحو الذي تذكره كتب التاريخ ، والذي يصوره ابن هانىء في قصيدته التي تقدم بها إلى جوهر ، مادحا له ، وهي القصيدة العاشرة في ديوانه ، كما نشره الدكتور زاهد علي . وذلك إذ يقول ، بعد أن نوه بمكانه من المعز :

ولما تفشت جانب الأرض فتنة ... تشب لظى الهيجاء الفح الفحا
رمى بك ـقارون المغارب عاتيا ... وفـرعونها : مستحييـا ومـذبحـا
ورام جماحاً ، والكتائب حوله ، ... فوافاك في ظل السرادق أجمحا
فلما اطلخم الأمر اخفت زأره ... فمجمج تعريضاً ، وقد كان صـرحا
مردد جاش في التراقي فضحته ... وكـانت له ام المنيـة افضحا
ومـطرح الآراء مـاكـر طـرفـه ... ولا ارتد حتى عاد شلوا مطرحا
فلم يدع ارنانا ، ولا اصطفقت له ... حلائله في مأتم النوح نوحـا
وغودر في اشياعه نبأ ، وقـد ... محوت به رسم الضلالة فامحى
وادركت سؤلا في ابن واسول عنوة ... وزحزحت منه يذبلا فتزحزحـا
يمـوت ويحيي بين راج وآيس ... فكان له الموت المواشك أروحا
تـضمـنــه حجـل كلبــة أرقـم ... إذا خرس الحادي ترنم مفصحا
وقد سلبته الزاغبية مـا ادعى ... فاصبح تنينا وأمسى ذرحــرحـا

ويمضي ابن هانىء في قصيدته هذه التي يبدو فيها مبلغ احتفاله بها واحتشاده لها ، والتي ناهزت عدة أبياتها السبعين ، يذكر الوقائع التي خاضها جوهر ما بين سجلماسة وفاس حتى بلغ ساحل البحر ، ورؤوس الأعداء الذين ظفر بهم ، فأسر منهم من أسر وقتل من قتل ؛ في أسلوب تصويري يفيض بالسخرية . ولكنها لا تكاد تعرض لشيء من مبادىء التشيع وعقائد الشيعة ، على النحو الذي اشتهر به ابن هانىء بعد ، وغاية ما نراه فيها من ذلك هو ما نحسه فيما جعله ختاماً لقصيدته ، إذ يقول :

وكانوا ، وكـانت فترة جـاهليه ... فقد نهج الله السبيل واوضحا
لأفلح منهم من تزكى ، وقاده ... حـواري املاك تـزكى وافلحا
حلفت بمستن البــطاح اليــه ... وبـالركن والغادي عليـه ممسحا

لردوا إلي الآيات معجزة فلو لمست الحصا فيهم بكفيك سبحا

ومهما يكن من شأن هذه القصيدة ومدى دلالتها ، فإنها أول ما عقد بينه وبين الدولة الفاطمية ، متمثلة في شخص أحد قوادها الذين يحاربون باسمها . وقد كان ممن تصدى لهم شيعة بني أمية وعمالها في المغرب .

ولعل قرب عهد ابن هانىء بأمويي الأندلس ، وما لا يزال يحفظه لهم من جميل صنيعهم ، انعكس على نهجه فيما عرض له من تصدي جوهر لهم ، بالقياس إلى ما صور من أمر رجل كابن واسول مثلاً ، وذلك إذ يقول :

ليالي حروب كن شهباً ثواقبا لها شعل كانت سمائم لفحا
رأى ابن ابي سفيان فيها رشاده وعفى على اثر الفساد واصلحا
دعاك إلى تأمينه ، فاجبته ولو لم تداركه بعارفة طحا
وفي آل موسى[1] قد شننت وقائعا اهبت لهم تلك الوقائع لقحا
فلما رأوا ألا مفر لهارب وابدت لهم أم المنية مكلحا
واكدى عليهم زاخر اليم معبرا وضاق عليهم جانب الأرض مسرحا
صفحت عن الجانين منا ورأفة وكنت حرياً أن تمن وتصفحا
وقد أزمعوا عن ذلك السيف رحلة فملكت أولاهم عنانا مسرحا

وبعد ، فهذه ـ فيما نعلم ـ أولى قصائد ابن هانىء في هذا العهد الجديد الذي تحول اليه منذ تحول عن الأندلس . ولا نعلم له قصيدة أخرى قالها في جوهر في هذه الفترة .

وأكبر الظن أن أمر جوهر في المغرب لم يكن يتيح له أن يفرغ لاستقبال الشعراء والجلوس اليهم والحفاوة بهم ، وبذلك لم يتح لابن هانىء معه غير لقاء عابر غير متلبث . فكان لا بد له أن يلتمس لشاعريته مطمأناً تطمئن نفسه اليه ، وتسكن فيه ، وتزدهر به .

---

(١) يقول شارح الديوان « آل موسى هم ابناء موسى بن ابي العاقبة . وكان هذا الرجل والياً على فاس من جهة بني أمية الذين كانوا بالأندلس .

وبذلك اتجه إلى المغرب الأوسط ، ومضى إلى المسيلة ، حيث يقيم أمير الزاب : جعفر بن علي بن حمدون الجذامي ، واخوه يحيى ، وابنه ابراهيم ، وسائر اسرته .

وكان جعفر بن علي ممن شارك في حرب يزيد بن مخلد وابلى فيها بلاء حسنا ، ولعله كان ممن تولوا حصاره حين التجأ إلى قلعة كتامة في الزاب ، وما زالوا به حتى استنزلوه منها ، وأوقعوه في الأسر ، فلما انقضت هذه الحرب ، جعله الخليفة أميرا على الزاب ، فاتخذ من المسيلة قاعدة له ، يتولى منها حكم هذه المنطقة وضبطها وتدبير أمورها ، وينتصب منها لاخماد أي فتنة تنشب ، ومقاومة أي تمرد يثور على الخليفة . ولم تكن هذه المنطقة قد برئت تماما من الخوارج الذين تـأشبوا فيها منذ عهد غير قليل ، فما زالت لهم جيوبهم هنا وهنا .

وفي إحدى قصائد ابن هانىء في جعفر بن علي ما يدلنا على أنهم عادوا إلى الاعتصام بقلعة كتانة ، وقد شبهها بالأبلق الفرد في أرض تيماء . فقال في مطلعها :

بلى ! هذه تيماء والأبلق الفرد   فسل أجمات الأسد ما فعل الأسد

وإن جعفر استطاع أن يستولي عليها ، ويخضع المعتصمين بها . وكان ذلك من الأحداث الكبرى التي اهتزت لها شاعرية ابن هانىء ، قد رأى فيه ما يؤذن بتحقيق حلم الخلافة الفاطمية من ضم المشرق اليها ، والقضاء على الخلافة العباسية فيه ، كما يبدو ذلك في قوله ، عقب ذلك المطلع :

يقولون : هل جاء العراق نذيرها   فقلت لهم ما قالت العيس والوخد :
اصيخـوا ، فما هذا الذي أنا سامع   برعد، ولكن قعقع الحلق السرد
تؤم أمــير المؤمنـين طــوالعـا   عليه طلوع الشمس يقدمها السعد
فتوحات ما بين السماء وأرضها   لها عند يوم الفخر السنة لـد

على أن هذه القصيدة في جملتها تمثل اقليم الزاب أرضاً تغلغل مذهب الخوارج فيها ، وسيطر عليها ، وظل شجى للملك بها ستين عاماً ، لا تكاد

جمرة من جمراته تنطفىء أو تخمد حتى تتقد أخرى . فإذا أطفئت الجمرة المخلدية في نهاية تلك الحرب ، فإن هنالك « أخرى لها بالزاب مذ زمن وقد » :

بها النار، نار الكفر، شب ضرامها ... ولو حجبت في الزند لاحترف الزند
فمن جمرة قد اطفئت مخلدية ... وأخرى لها بالزاب مذ زمن وقد
رأت هاشم من تلك ما قد بدا لها ... وفي هذه مكنون ما لم يكن يبدو
وعاد لها الداء القديم، فاصبحت ... بها نافض منه، وليس بها ورد

إلى أن اتيح لها جعفر بن علي ، فعاجلها ، وأخمد وقدتها ، حتى اصبحت « آمن من منى ، وافيح من نجد وما وصلت نجد » .

ولما اكفهر الأمر اعجلت أمرها ... فألقت وليد الكفر وهي له مهد
أخذت على الأعداء كل ثنية ... واعقبت جندا واطئا ذيله جند
كان لهم من حادث الدهر سائقا ... يسوقهمو أو حاديا بهمو يحدو
كأنك وكلت الغمام بحربهم ... فمن عارض يمسى ومن عارض يغدو
كأن عليهم منك عنقاء تعتلى ... فليس لها من أن تخطفهم بد
فلما تقنصت الضراغم منهمو ... فلم يبق إلا كسعة خلفهم تعدو
كثير رزاياهم قليل عديدهم ... وكانوا حصى الدهناء جمعا إذا عدوا
أتوك فلم يردد منيب ولم يبح ... حريم ولم يخمش لغانية خد

وعلى هذا النحو مضت هذه القصيدة التي بلغت أبياتها ستين بيتا ، بين تصوير أرض الزاب والخوارج منبثون فيها ، وتصوير جعفر بن علي وجيشه وقد اطفأ نيرانهم وخضد شوكتهم ، وطهر أرض الخلافة من أذاهم ، إلى أن يختمها بقوله :

شهدت لقد ملكت بالزاب تدمرا ... وفتح في أيام اقبالك السد
ومثلك من أرضى الخليفة سعيه ... فإن رضي المولى فقد نصح العبد

ومن المسيلة التي ازدهرت وأفتنت صور العمران فيها ، والتي نستطيع أن نرى صورة رائعة منها فيما يذكرها ابن هانىء به في القصيدة السابعة

والخمسين من قصائد ديوانه[1] ، كان جعفر يرقب ما يثور هنا وهناك من الفتن وحركات التمرد . وكثير منها كان مما أثاره امويو الأندلس وأرثوه ، فينهض له ويتصدى لمقاومته واخماده . وقد عرض ابن هانىء لبعض ذلك في لهجة تختلف تماما عن اللهجة الرقيقة التي رأيناها فيما عرض لهم به في قصيدة مدحه جوهرا ، كما نرى في قوله :

تشكي الاعادي جعفرا وانتقامه	فلا انجلت الشكوى ولا رئب الصدع
ولما طغوا في الأرض اعصر فتنة	وكان دبيب الكفر في الدولة الخلع
سموت بمجر جاذب الشمس مسلكا	وثار وراء الخافقين له نقع
فالقى باجرام عليهم ، كأنما	تكفت على أرض سمواتها السبع
كتائب شلت ، فابذعرت اميه	فأوجهها للخزي أقفية سفع
الا ليت شعري عنهم ، أملوكهم	تدبر ملكاً ، أم اماؤهم اللكع

إلى آخر ما يخلعه من هذا القبيل على أمويي الأندلس .

وليس من شأننا هنا أن نتتبع نشاط ابن هانىء الشعري في هذه المرحلة ، فنستقصي مدائحه في جعفر بن علي ، وفي يحيى ، اخيه الأصغر وربيبه ، وفي ابرهيم ابنه ، وننظر في مراثيه في أمه وحفيده ، ونتبين الفنون الشعرية التي تناولها ، والصور الفنية التي استخدمها . فإنما الذي يعنينا في هذه الدراسة خاصة هو أن نرى مبلغ انعكاسات الاتجاه الشيعي في شعره ، في هذه المرحلة ، كما حاولنا أن نتبين ذلك في المرحلة السابقة ، مرحلة اتصاله بجوهر .

والأمر في ذلك هنا قريب مما رأينا هنالك ، فعلى وفرة ما قال في مدح جعفر ويحيى وابرهيم ، وعلى ما تأنق في قصائده فيهم ، فانهم ليسوا آخر الأمر إلا عمالا للخليفة يذودون عن خلافته ويقاتلون خصومها ، ويحمون ثغورها ، ويدبرون في اقليم الزاب أمورها ، في شجاعة فائقة ، وحصافة وحكمة ، والا امراء يمثلون الحياة المترفة والسخاء والكرم ، فيما يبذلون

---

(١) الشمس عنه كليلة اجفانها   عبرى يضيق بسرها كتمانها

ويجزلون ، في سماحة واريحية ، خلالا ورثوها عن اسلافهم من أهل اليمن . وكان ذلك أكبر ما يصل ابن هانىء بهم ، وما يزال يردده ويشيد به ، فهم بيمنيتهم هذه « بنو عمه ، واملاك قومه ، والخضارم من نجره » . أما مبادىء التشيع وعقائده فلا تكاد تلفت في شعره فيهم نظرا ولا تثير انتباها . وأحسب أن كلمة التشيع لم ترد فيه ، إلا في مثل هذا البيت يصف سيف يحيى الذي « صحب ابن ذي يزن وادرك تبعا » :

في كف يحيى منه ابيض مرهف عـرف المعـز حقيقـة فتشيعـا

وقد أمضى ابن هانيء في بلاط جعفر وأخيه يحيى فترة غير قصيرة ، قرير العين ، سعيداً بمقامه في رحابهما . وقد وجد في صحبة يحيى خاصة ما زاده تعلقا به ، لما بينهما من تقارب السن وتشابه النوازع ، حتى إنه ليرافقه في بعض ما يخرج له في جيشه ، كما نرى ذلك في احدى قصائده التي الحقها الدكتور زاهد علي بالديوان :

خليلي أين الزاب عنا وجعفر وجنـة خلد بنت عنها وكـوثر

وهو في شعره فيهما كثير الاشارة إلى أنه لا يود أن يستبدل بهما ، أو يجعل مديحه في غيرهما . وإن كان هذا لا يعني أن طموحه الذي كان يهيجه ما أصابته شاعريته من منزلة ، وما اتاحته له من مكانة ، قد وقف عند هذا الحد قانعاً به ، وأنه لم يكن يطمح ببصره إلى الخليفة المعز ، صاحب السلطان الأول في هذا الأفق .

ولا ريب عندنا في أن شعر ابن هانىء ، بما طلع به على البيئات الأدبية من ديباجة رائعة ، وصور بارعة مسترسلة ، ونفس طويل يتدفق حيوية ، قد جعلت أصداؤه تتردد في جنبات المغرب العربي كله ، مثيرة للاعجاب ، كما لا نكاد نشك أنه قد بلغ بلاط المعز في أفريقية ، وان اعجابه به قد جعله حريصا على أن يكون ابن هانىء شاعره الأثير عنده ، الجدير بامارة الشعر لديه ، وبما هو مقبل عليه عامل له ، محتاج فيه إلى مثله ، من التحول من المغرب إلى المشرق ، ثم الوثوب من مصر ، واجهة المشرق ، إلى امارات

الشرق وممالكه ، واسقاط الدولة العباسية والدويلات الدائرة في فلكها ، ليكون وحده صاحب الأمر في العالم الإسلامي ، ويكون التشيع هو المذهب السائد الذي يصبغ الأرض الإسلامية قاطبة بصبغته .

وبهذا يمكن القول بأن مطامح ابن هانيء المحلقة التقت برغبة المعز التي ربما كان قد أفضى بها إلى أمير الزاب ، جعفر بن علي ، ليوجه اليه بابن هانيء .

وهكذا ترك ابن هانيء بلاط أمير الزاب ، ومضى إلى افريقية ، ليكون شاعر المعز ، أو شاعر الخلافة الفاطمية بها ، متهلل النفس ، متشوفاً لتحقيق ما لعله كان يداعب خياله ، ويثير آماله ، وأشرف بذلك على مرحلة جديدة من مراحل هذه الفترة في حياته .

ومنذ أقبل على المهدية أحس شعراؤها ، فيما يقال ، بخطر قدومه عليهم ، وتوجسوا أن يكون في قدومه ما يضع منهم . إذ كانوا قد رأوا فيما بلغهم من شعره طرازاً تعاظمهم ، ولعلهم علموا من أنفسهم انهم لا يحسنونه ، كما رأوا في ترقب المعز له ما ملأ قلوبهم شعوراً بالقلق والخشية ، ثم لم يلبث ذلك الشعور أن تحول إلى رغبة في النيل منه ، والاجتماع على مهاجمته وهجائه . ولعلنا نرى في هذه الأبيات بعض اصداء ما جعل يتعرض له من ذلك :

إذا ما مدحناكم تضوع بيننا	وبين القوافي من مكارمكم طيب
فإن اك محسودا علي حر مدحكم	فغير نكير في الزمان الاعاجيب
اراني إذا ما قلت بيتاً تنكرت	وجوه كما غشى الصحائف تتريب
افي كل عصر قلت فيه قصيدة	علي لأهل الجهل لوم وتثريب؟
وما غاظ حسادي سوى الصدق وحده	وما من سجايا مثلي الافك والحوب
وما قصد مثلي في القصيد ضراعة	ولا من خلالي فيه حرص وترغيب
أرى أعينا خزرا إلي ، وإنما	دليلا نفوس الناس بشر وتقطيب
ابن موضعي فيهم ليفخر غالب	يبين بسيماه ويدحر مغلوب

وقد كثروا ، فاحكم حكومة فيصل ليعرف رب في القريض ومربوب

أو في مثل قوله :

أرى شعــراء الملك تنحت جــانبي وتنبــو عن الليث المخـاض الاوارك
تخب الي ميــدان سبقي بــطاؤ هــا وتلك الـظنون الكـاذبـات الأدافك
رأتني حمـامـا فــاقشعـرت جلودهــا وإني زعـيـم ان تـلين الـعـرائــك
تسيء قــوافـيهـا وجــودك محسن وتنشـج ارنـانـا ومجـدك ضـاحـك
واجـدي وأكـدي والمنـاديـح جمــة فـما لي غني البـال وهي الصعــالـك
ابت لي سبيـل القوم في الشعـر همـة طـمـوح ونـفس لـلدنـيــة فــارك

لقد دأبوا اذن على النيل منه والغض من شعره . وإذا كان قد بدأ أمره غير عابىء بهم ، ثقة بنفسه ، واطمئنانا إلى مكانه من الخليفة ، فانهم مضوا في مهاجمته ، متخذين من غلوه في المدح وسيلة إلى اتهامه بالكذب والمنافقة ، حرصا على اجتلاب رضا الخليفة واستدرار عطائه، فكانت هذه الأبياتُ التي جاءت في سياق قصيدته :

أقول دمي ، وهي الحسان الرعابيب ومن دون استار القباب محاريب

يستعدي الخليفة عليهم ، ويحتكم اليه فيما بينه وبينهم . وما نكاد نشك في أنه ، بشعره الذي غمر شعرهم ، وموقف الخليفة منه ومنهم ، أهملهم وردهم عن مكانهم .

وليس يبعد عندنا أن يكون هذا من أسباب ضياع شعر هؤلاء الشعراء ، إلى جانب ما قدمنا ذكره ، إذ لم يستطيعوا ـ بطبيعة الحال ـ مجاراته ، لا في طول نفسه ، ولا في ديباجتة العربية الجزلة الرصينة ، ولا في قدرته على توليد المعاني وصياغة الصور . بل ولا فيما كانوا يرون أنفسهم أخص الناس به ، وأكثرهم تغلغلاً فيه ، لطول ممارستهم له ، من دقائق العقيدة الشيعية . فقد استطاعت شاعريته أن تمضي في ذلك إلى المدى البعيد ، وأن تبلغ منه مبلغاً لا يكاد يترك وراءه زيادة لمستزيد . وليس يبعد عندنا أن تكون المنافسة بينه وبينهم في ذلك هي التي أوغلت به في هذه السبيل ، ودفعت به إلى ذلك الغلو الشديد .

وكذلك لا يبعد عندنا أن تكون تلك الفلسفات الباطنية الغريبة التي فتن بها في قرطبة ، فكانت مما أثار الأنكار عليه ، وهاج العجاج حوله ، قد وجدت في هذا الجو الجديد في المهدية وقصر الخلافة ما أثارها من مكمنها ، فكانت من الأسباب التي جعلته ـ كما نرجو أن نرى ذلك ـ يتغلغل في تلك المعاني الباطنية الشيعية تغلغلاً مغرقاً في الغلو . وذلك إلى جانب ما كان يملأ نفسه ويراود خواطره من مطامح بعيدة تحمله على أن يتوسل ـ على الأقل فيما كان يخيل اليه ـ إلى هذه الدولة بكل وسيلة يراها مؤدية إلى تحقيقها ، وأن ينزل منها المنزلة التي يتطلع اليها .

ولعل في النظر في أولى قصائده في المعز ما يبين لنا شيئا من حقيقة ما جعل يساور شعراء البلاط المعزي من قلق ، وما ملأ قلوبهم حسدا له وحفيظة عليه .

وفي ديوان ابن هانىء قصيدتان قدمت كل منهما بانها أولى قصائده في مدح المعز أما احداهما فقصيدة حائية تقع في تسع وخمسين بيتاً ، مطلعها :

هل كان ضمخ بالعبير الريحا   مزن يهز البرق فيه صفيحا

(ص ١٤٣)

والأخرى قصيدة نونية تقع في سبع وثمانين بيتا ، مطلعها :

هل من اعقة عالج يبرين   أم منهما بقر الحدوج العين

(ص ٧٢٨)

وشفع هذا التقديم بأن المعز « أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين : مالي موضع يسع الدست إذا بسط ، فأمر له ببناء قصر ، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل اليه آلة تشاكل القصر والدست ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار » .

والذي يغلب على الظن أن أولى هاتين القصيدتين هي الأولى بأن تكون أولى قصائده في مدح المعز ، وذلك بما تضمنته مقدمتها من ذكر قدومه عليه ، إذ يقول :

جحت بنا حرم الامام نجائب ترمي اليه بنا السهوب الفيحا
فتمسحت لمم به شعث ، وقد جئنا نقبل ركنه الممسوحا
هل لي إلى الفردوس من اذن وقد شارفت بابا دونها مفتوحا
(ص ١٤٧)

في حين قد خلت مقدمة الأخرى من ذلك ، وان كنا لا نرى بأسا في أن نعتبرها ثانية قصائده ، وقد أوهم قرب عهدها ببلوغه المهدية ، وما نالت من ذلك الجزاء الأدبي ، أن تكون هي الأولى ، بل لعل النظر فيهما يؤدي بنا إلى القول بانهما قد صدرا عن فترة واحدة قريب بعضها من بعض ، وانهما يمثلان حالة متجانسة لا تختلف موضوعاتها إلا من ناحية الكم ، قلة وكثرة وصعفاً وقوة .

أما قوة النسج وجمال الديباجة وبراعة التصوير فقدر مشترك في جميع شعر ابن هانىء ، يمتاز به إلى حد بعيد عن شعراء أفريقية المعاصرين . ولكن شاعرية ابن هانىء تجاوزت هذا المدى الذي عرفت به في أرض الزاب بعد أن تحولت إلى أفريقية ، وتنسمت جو التشيع في المهدية او المنصورية ، فانفتح لها به عالم حلقت فيه ودومت في آفاقه ، والتقت فيه نوازعه القديمة الكامنة بما يموج به هذا الجو من عقائد وأوهام واخيلة ، واستطاعت أن تحقق فيه ابداعها في الخلق والتوليد والتوشيه .

وقد مثل المعتز في هذه الشاعرية خلقاً لا كالخلائق التي مثلت فيها من قبل ، لا بما له من سلطان واسع ، وما عرف به من شجاعة فائقة وسخاء واريحية ، بل بما تمتع به من خصائص الهية انفرد بها . وما الخلافة التي يتبوأ مكانها ويحكم باسمها كالخلافة التي عهدها الناس فيمن خلفوا رسول الله ، فإنما هو خليفة الله لا خليفة رسوله . يتلقى عن الله كما يتلقى النبي ، فخلافته كالنبوة ، كما أن ما يلهمه من المعرفة هو نظير الوحي الذي يوحي إلى الرسول ، إلى غير ذلك مما صاغه في هذه الأبيات التي خاطب بها المعز ، وهو يتقدم اليه بأولى قصائده :

أوتيت فضل خلافة كنبوة ونجي الهام كوحي يوحى
أخليفة الله الرضى وسبيله ومناره وكتابه المشروحا
يا خير من حجت اليه مطية يا خير من أعطى الجزيل منوحا
ماذا نقول ؟ جللت عن افهامنا حتى استوينا أعجماً وفصيحا
نطقت بك السبع المثاني السنا فكفيتنا التعريض والتصريحا
تسعى بنور الله بين عباده لتضيء برهانا لهم وتلوحا
وجد العيان سناك تحقيقا ولم تحط الظنون بكنهه تصريحا
اخشاك ينسي الشمس مطلعها كما أنسى الملائك ذكرك التسبيحا
صورت من ملكوت ربك صورة وأمدها علما فكنت الروحا
اقسمت لولا أن دعيت خليفة لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدت بمعجزك السموات العلى وتنزل القرآن فيك مديحا

فإذا كانت القصيدة التالية لهذه القصيدة ، والتي افترضنا أنها ردفها ، فقد عرض في سياق مدح المعتز لوجه آخر من وجوه قدسية الامام عند الشيعة ، وهو قولهم إنه العلة الأولى للكون ، خلق قبل أن يخلق ، وقد خلق هذا الكون من أجله ، وأنه منه بمثابة الروح من الجسد ، فكان مما عبر به عن هذا المعنى قوله :

هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الاله وغيبها المكنون
من اجل هذا قدر المقدور في أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه عفوا وفاء ليونس اليقطين

وكما اشتركت القصيدتان في هذا الجانب من جوانب الامامة عند الشيعة ، اشتركتا في الحديث عما تعرضت له من عدوان بني أمية عليها ، واغتصابها من أهلها . وكما بدأ هذا العدوان في المشرق بابن ابي سفيان ، فإنه استمر في المغرب بادعاء عبد الرحمن الناصر لها ، وتسميه باسمها ، ومنازعته الفاطميين في المغرب ، واثارته الفتن عليهم بين قبائله ، وهي الفتن التي تصدى لها جوهر وجعفر ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

وقد رأينا أن تصدي جعفر لهذه الفتن ومقاومتها كان مما أثار شاعرية ابن هانىء وهو بالزاب ، وقد استمرت هذه الفتن واستمر جعفر يقود الجيوش لاخمادها ، فيقتل ويأسر ، ويبعث بالأسرى إلى الخليفة المعتز ، وتتردد انباء هذا القتال في أفريقية ، فتتخذ منه شاعرية ابن هانىء مادة لها ، على هذا النحو الذي نراه في قصيدته الأولى ، إذ يعرض لهؤلاء الأسرى ، يرسم صورة لهم ، ثم ينتقل إلى الجيش وقائده ، والمعارك في البر والبحر :

أمتك بالأسرى وفود قبائل	لا يجتدينك سيبك الممنوحا
وصلوا أسى بقليل تذكار ، كما	وصل النشاوى بالغبوق صبوحا
لو يعرضون على الدجنه انكرت	ذاك الشحوب النكر والتلويحا
ولقد نصحتهم على عدوانهم	لكنهم لا يقبلون نصيحا
حتى قرنت الشمل والتفريق في	عرصاتهم والنبت والتصويحا
ونصرت بالجيش اللهام وانما	اعددته قبل الفتوح فتوحا
أفق يموج الأفق فيه عجاجة	بحر يموج البحر فيه سبوحا
لو لم يسر في أفق عزمك آنفا	لم يلف منخرق الجنوب فسيحا
يزجيه أروع لو يدافع باسمه	علوى املاك السماء أزيحا
قاد الخضارمة الملوك فوارسا	قد كان فارس جمعها المشبوحا
فكأنما ملك القضاء مقدرا	في كل أوب ، والحمام منيحا
وافى بهيبة ذي الفقار ، كانما	وشحته بنجاده توشيحا
حتى إذا غمر البحار كتائبا	لو ير تشفن اجاجها · لاميحا
زخرت غواشي الموت نارا تلتظى	فأرت عدوك زندك المقدوحا
فكأنما فغرت اليه جهنم	منهن أو كلحت اليه كلوحا

حتى إذا فرغ من رسم صور المعركة التي أرسل وراءها خياله الشعري ، وخلع عليها من قرارة نفسه تلك الألوان والتهاويل ، ومثل فيها الجيش الفاطمي مؤيداً بالنصر ، وخصوم المعز الخارجين عليه والمناوئين له ، وقد عمهم الهوان ودحرتهم الهزيمة الماحقة ، دل عليهم ، فإذا هم بنو أمية الذين اتخذوا من عدوة الأندلس مقرا لهم ، وقد جعلوا يبعثون الخصومة

القديمة التي ما زالت تتجدد في شتى الصور منذ الجاهلية ، فيثيرون الفتن على دولة الفاطميين في العدوة الافريقية . ثم هو يتمثلهم ، بعد أن أخذهم طوفان الجيش الفاطمي وحاقت بهم الهزيمة ، وكأنما عن لهم أن يتقوا الهلاك بأن يعودوا بالمعز ويتوبوا اليه ، فجعلوا يستشرفونه وقد توهموه في الجيش ، يأتلق التاج عليه . ولكن هيهات ! ان على المعز أن ينفذ قضاء الله في أعدائه هؤلاء الذين غصبوا حقه ، وما زالوا منذ علي يناصبونه العداء :

وامية تحفي السؤال. وما لمن ... أودى به الطوفان يذكر نوحا
بهتوا ، فهم يتوهمونك بارزا ... والتاج مؤتلقاً عليك لموحا
تتجاوب الدنيا عليهم مأتما ... فكأنما صبّحتهم تصبيحا
لبسوا معانيهم ورزء فقيدهم ... كاللابسات على الحداد مسوحا
انفذ قضاء الله في اعدائه ... لتراح من أوتارها وتريحا
بالسابقين الأولين ، يؤمهم ... جبريل يعتنق الكماة مشيحا
فكأن جدك في فوارس هاشم ... منهم بحيث يرى الحسين ذبيحا
اعليك تختلف المنابر بعدما ... جنحت اليك المشرقات جنوحا
أم فيك تختلج الخلائق مرية ... كلا، وقد وضح الصباح وضوحا

وقد يلاحظ على هذه القصيدة التي كانت أول ما تردد من انشاده في جنبات القصر شيء من التعثر في اداء المعنى وانبهامه، والتكلف في الصياغة ، والقصور عن اداء الصورة كما ينبغي أن تكون . ولعل ذلك كان مما جعل شعراء بلاط المعز يتبادلون القول فيه ، وغميزته به ، ويرون به مدى ما بين شعره هذا في المعز وما كان يبلغهم من شعره وهو بعد في الزاب . ولكن ابن هانىء لم يلبث أن بادرهم بقصيدته التالية التي أشرنا اليها ، والتي ربما كان يود لو كانت الأولى ، كما اعتبرها كذلك بعض الرواة . وقد بالغ - فيما يبدو - في الاحتشاد لها ، والاحتفال بها ، فاستحقت ذلك العطاء الجزل الذي منحه بها . وأن تذكر بين المتأخرين بأنها من غرر شعره ونخب مدائحه ، وقد عاد فيها إلى موضوعات القصيدة الأولى .

وكما استأنف فيها الكلام عن مظاهر العنصر الإلهي في الامامة وقدسية

الامام ، على النحو الذي رأينا من قبل ، عاد إلى حديث الحرب بين المعز وبين خصومه من بني أمية ، الحرب التي عرض لها في قصيدته الأولى ، ولكنه إنما ذكرها هنا في سياق ما جعل يهلل له من حياطة الله له ، وتمكن أمره ، ثم لم يقف عندها ، بل جعلها مدرجة إلى دعوته لتحقيق الأمل المعقود به ، أن يجمع أطراف العالم الإسلامي في سلطانه ، وأن يبلغ من ذلك ما حالت دونه سيوف بني أمية ، ومن خلفهم من بني العباس . كل ذلك في عبارة مشرقة ، وأبيات متساوقة ، برئت مما كان يشوب قصيدته الأولى من تكلف وتعثر .

ها هو ذا لا يكاد يمضي في التنويه بما مكن الله للمعز منه ، وما آثره به ، مستطرداً إلى ذكر البحر ، وقد جعله شبيهاً به في الكرم ، حتى قال يخاطب المعز :

وأذن له يغرق أمية معلنا	ما كل مأذون له مأذون
واعذر أمية أن تغص بريقها	فالمهل ما سقيته والغسلين
الفت بأيدي الذل ملقي عمرها	بالثوب إذ فغرت له صفين
قد قاد أمرهم وقلد ثغرهم	منهم مهين لا يكاد يبين
لتحكمنك أو تزايل معصما	كف ويشخب بالدماء وتين
أو لم تشن بها وقائعك التي	جفلت وراء الهند منها الصين

ولكن أمية هذه التي استطاعت أن تقفز من المشرق إلى الأندلس ، وتتخذ منها موطناً لها . ومركزاً تناوىء منه الفاطميين في العدوة الأفريقية ، فتثور الحرب بينها وبينهم ، دون أن تنتهي إلى موقف حاسم وموقعة فاصلة ، حتى كان غاية ما يرجوه رجل كابن هانىء ان يتمنى لو أن البحر ابتلعها . أمية هذه لا ينبغي أن تستأثر بالمعز ، وتصرفه عن الأفق الآخر من آفاق العالم الإسلامي ، وعن الدولة العباسية والدويلات الدائرة في فلكها . فإلى هذا الأفق ينبغي أن يتجه نشاطه ، وإلى المشرق ينبغي أن يأخذ سبيله ، ويبدأ بتحقيق الخطة المرسومة . وهكذا انتقل ابن هانىء من حديث الحرب مع أمية إلى حديث الزحف إلى الشرق :

أو غير هذى صيلم . ان الذي وقـاك تلك بـأختهـا لقمـين
بل لو سريت إلى الخليج بعـزمة سرت الكواكب فيه وهي سفين
لو لم تكن حزما اناتك لم يكن للنار في حجر الـزناد كمـون
قد جاء أمر الله، واقترب المـدى من كـل مطلع وحـان الحين
ورمى إلى البلد الأمين بطرفه ملك عـلى سـر الالـه أمـين
لم يدر ما رجم الظنون. وانما دفع القضاء اليـه وهو قمين

وكأنما كان ذكر المشرق، واستحثاث المعز على السير اليه والسيطرة عليه ، وان رأى ابن هانىء اناته حزما واستجماعا ، ككمون النار في حجر الزناد ، مدعاة لذكر ما ثار في صدر الإسلام من الخلاف على علي ، ومنازعته حقه في الامامة . ففي ذلك المشرق ثار ذلك الخلاف ، وفيه اضطرمت نيران الحرب التي صدرت عنه . وكان من ذلك أن تطرق ابن هانىء اليه قائلاً :

كذبت رجال ما ادعت من حقكم ومن المقـال كـأهله مـأفـون
ابني لؤي، اين فضل قديمكم؟ بل اين حلم كالجبـال رصين؟
نـازعتم حق الـوصي، ودونـه حزم، وحجر مانع، وحجـون
نـاضلتموه عـلى الخلافـة بالتي ردت، وفيكم حـدها المسنـون
حرفتموها عن ابي السبطين من زمع وليس مع الهجان هجين
لو تتقون الله لم يـطمح لهـا طرف، ولم يشمخ لها عرنين
لكنكم كنتم كأهل العجل، لم يحفظ لمـوسى فيهـم هـارون

ويمضي في مثل هذا الحجاج على هذا النمط ، متطرقاً منه إلى مدح المعز ذلك المدح الذي يرتفع به فوق البشر ، إلى أن ينتهي من القصيدة ، وقد ناهزت التسعين . واستطاع بها أن يبلغ من الخليفة وبطانته ما كان يطمح اليه من مكانه ، كما استطاع بها ، وبما أصاب من منزلة ، أن يثير حسد الشعراء ويهيج حفيظتهم ويخملهم ، ويغمر شعره شعرهم ، منذ ارتفع بهذا الشعر إلى المشاركة في هموم الدولة ، ومزج بين المدح والسياسة ، ومس بذلك الاوتار الحساسة .

الفصل السادس

دور ابن هانىء
في انتقال الدولة العبيدية
إلى مصر

وكان ابن هانىء ، في استحثاثه المعز على أن يولي وجهه نحو المشرق ، إنما يعبر عن الرغبة الكامنة في نفوس الشيعة . فالمشرق هو مهبط الوحي ، ومهد النبوة والرسالة ، ومنه انبعثت الامامة ، وفيه ثارت الخصومة حولها ، وقامت الحرب من دونها ، واغتصبت من اربابها ، وابتدأت بذلك محنتهم . وفيه قامت دولة بني العباس الذين خدعوا الطالبيين ، إذ نهضوا بدعاتهم ، وظفروا بفضلهم ، واسقطوا الأمويين باسمهم ، ثم انفردوا بالأمر دونهم ، ولم يلبثوا أن جعلوا يتعقبونهم ، فتضاعفت بذلك المحنة . وقد امتد سلطانهم ، فشمل معظم العالم الاسلامي ، من حدود المغرب إلى أقصى المشرق . ثم ها هي ذي دولتهم ، مع ذلك ، ممزقة الأوصال ، مقطعة الوشائج ، توزعها الأمراء من هنا وهنا ، بعد أن انهكتها حرب الروم ، وارهقتهاالفتن ، وسرت فيها عوامل الضعف ، وادركتها الشيخوخة ، كما سرت في كل ناحية من نواحيها التي استبد بها هؤلاء الأمراء عوامل الشقاق وأسباب العداوة . فهي مهيأة بذلك كله لأن تسقط في أيدي الفاطميين ، فيستردوا بذلك حقهم ، ويحققوا ما ظل أمداً طويلاً يتخايل لهم ، ويبعث آمالهم .

وإذا كانت الخطوة القريبة تتمثل في الاتجاه إلى مصر والاستيلاء عليها ، كما ساروا من المغرب إلى أفريقية وبسطوا سلطانهم فيها ، فإن اعينهم كانت

ما تزال طامحة إلى ما وراء مصر ، وكان دعاتهم في تلك الأقطار ما يزالون يبعثون اليهم بانبائها ودخائل أمورها وما اتيح لهم من تمهيد الأوضاع فيها ، وبث الدعوة لهم في مجتمعاتها .

وكانت منطقة الثغور الشرقية من المناطق التي تتعلق بها السياسة الفاطمية ، إذ نرى أنها وثيقة الصلة بتحقيق ذلك الهدف ، وخاصة حين امتدت هذه المنطقة فاصبحت قريبة منها . وقد رأينا طرفاً من ذلك في خلال كلامنا عن النشاط الأدبي في عهد المعز ، وعن بعض صور الفن الكتابي . وذلك في قضية اقريطش ، وموقف المعز منها . وكان ذلك ـ كما قلنا ـ في سنة تسع وأربعين وثلاثمائة .

على أن موقع دولة الفاطميين على البحر ، بين الدولة البيزنطية في الشرق والدولة الأموية في الأندلس ، يضيف إلى هذا الاعتبار اعتباراً آخر ، اذ يفرض على المعز أن يشارك في الأحداث التي تدور فيه ، وخاصة ما كان قريباً منه أو متاخماً له ، وان يتخذ منها موقفا يجنبه كيد ذلك الحلف القائم بين هاتين القوتين اللتين تكتنفانه من يمين وشمال .

ومن قبل قضية اقريطش كانت موقعة مجاز ريه ، سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . ومجاز ريه أو ريو هو ـ كما يقول محققو كتاب المجالس والمسايرات ـ « مجاز مسينا الفاصل بين صقلية ومقاطعة قلوريه Calabria بجنوب ايطاليا » .

وهي الموقعة التي دارت بين أساطيل المعز من ناحية ، وأساطيل الروم وبني امية من ناحية أخرى ، والتي يذكرها النعمان ، وهو يتحدث عن بعض ما كان يحدث في البحر بين مراكب المعز الحربية ومراكب بني أمية ، واستنجاد الأموي بطاغية الروم ، فيقول :

« وخرج عليه السلام إلى المهدية ، وأنفذ أساطيله ، وفيها عساكر البر إلى جهة الروم ، وأقام بالمهدية ، وأمر أن يكون العساكر في كل مرسى بطريق الأندلس . وأقبل أسطول الروم . فلقي أسطول أمير المؤمنين دون صقلية ،

وأقبل اسطول بني أمية لميعاد المشركين . ففتح الله لوليه على الروم ، فهزمهم في البحر ، وقتل رجاله منهم خلقاً عظيماً . وولوا هاربين بين يدي أسطوله إلى مجاز ريه ليحموا بلدهم ، واتبعهم إلى ما هناك فلقوه في البحر أيضاً فهزمهم . فنزل عسكر البر بأرضهم ، فأنكى بالقتل فيهم ، فأحرق مدائنهم ، وأخرب كنائسهم ، وبلغ غاية الأمل فيهم من النكاية » (ص ١٦٦ - ١٦٧) .

وإذا كانت هذه الموقعة تمثل من بعض وجوهها رغبة الدولة البيزنطية في فرض سلطانها على بحر الروم ، ومد سيطرتها على هذا الأفق البعيد ، فانها تمثل من ناحية أخرى تصدي المعز لها ، وحرصه على أن يحمي حوزته ، ويطارد كل ما قد يتهدد خطته في الزحف نحو المشرق ، ومشروع الدولة الاسلامية الموحدة تحت رايته .

وبعد هذه الموقعة انعقدت بين المعز وامبراطور الروم هدنة ، وإذا كان المعز قد افاد منها سلامة جانبه ، فإن الروم قد أفادوا منها أنها أتاحت لهم أن يحققوا بعض سياستهم في هذا الجانب من البحر المتوسط ، فقد مكنت لهم من أن يوطدوا أقدامهم في جنوب ايطاليا ، ليثبوا بعد ذلك منه إلى صقلية ، كما سنرى ذلك بعد . وقد ذكر النعمان هذه الهدنة بقوله :

« وأرسل ملك الروم إلى أمير المؤمنين بأموال عظيمة وهدايا جليلة ، ورغب في التوقف عمن بقي من الروم بأرض قلورية ، على مال قطعه على نفسه يؤديه عنهم ، وأسرى من أسارى أهل المشرق ليطلقهم في كل عام ، لمدة يسيرة سأل الهدنة فيها . ورأى ذلك أمير المؤمنين صلاحا للدين وللمسلمين ، بعد أن اقدره الله عز وجل ، وامكنه ، وشفى صدره وصدور المؤمنين به » وكانت هذه الهدنة سنة ست وأربعين وثلاثمائة . (ص ١٦٧)

وفي سنة تسع وأربعين غزا الروم جزيرة اقريطش ، ونقضت هذه الهدنة ، وكان ما ذكرناه قبل من شأن المعز في هذا الحدث وموقفه منه .

فإذا كانت سنة ثلاث وخمسين فقد رأى الروم انهم قد آن أن يعبروا من

جنوب ايطاليا إلى صقلية ، ليستولوا عليها ويصبغوها بالصبغة المسيحية ، بعد أن كثرت في الجنوب الايطالي اعدادهم وقويت فيه شوكتهم ، واستطاعوا أن يعقدوا بمسيحي صقلية صلاتهم ، ويبثوا فيهم روح الثورة على الحكم الاسلامي فيها ، وأن يأخذوا بناصرهم في هذه الثورة بما يمدونهم به من مدد ، وبما يبعثون به من أساطيل إلى مياههم .

ولكن المعز تصدى لهذه الثورة فأخمدها ، واعترض الروم في غير موقع ، فدارت المعارك بين أسطوله وأسطولهم ، وكتب له النصر عليهم في الموقعة التي تعرف في التاريخ بموقعة المجاز ، سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .

ذلك طرف من نشاط الدولة الفاطمية في بحر الروم ، ومشاركة المعز في أحداثه ، بطبيعة موقعها منه ، ولأن ذلك يشكل جزءاً من سياستها الطامحة إلى ضم العالم الإسلامي اليها ، وما يقتضيه ذلك من قهر الثغور الرومية التي تتهدد خطتها . ومن ذلك عظمت عنايتها بالأسطول ، وقد ترددت اصداء تلك العناية في شعر ابن هانىء . وهو يمدح المعتز ، ويصف حربه للروم وانتصاره عليهم ، فيصور الأسطول تصويراً شعرياً استطاع أن يبذ به شاعرا كمحمد بن علي الإيادي فيما وصف به أسطول القائم ، وذلك في غير قصيدة من قصائده في الاشادة بالمعز . كقوله :

أما والجواري المنشآت التي سرت ... لقد ظاهرتها عدة وعديد
قباب ، كما تزجى القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود
أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود
وان الرياح الذاريات كتائب ... وان النجوم الطالعات سعود
وما راع ملك الروم الا اطلاعها ... تنشر اعلام لها وبنود
عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود
مواخر في طامي العباب ، كأنه ... لعزمك بأس أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها ، وسما لها ... بناء على غير العراء مشيد
وليس بأعلى كبكب وهو شاهق ... وليس من الصفاح وهو صليد
من الراسيات الشم ، لولا انتقالها ... فمنها قنان شمخ وريود

من الطير، الا انهن جوارح   فليس لها الا النفوس مصيد
من القادحات النار، تضرم للطلي   فليس لها يوم اللقاء خمود
اذا زفرت غيظا ترمت بمارج   كما شب من نار الجحيم وقود
فأنفاسهن الحاميات صواعق   وافواهن الزافرات حديد
تشب لآل الجاثليق سعيرها   وما هي من آل الطر يد بعيد
لها شعل فوق الغمار، كأنها   دماء تلقتها ملاحف سود
تعانق موج البحر، حتى كأنه   سليط لها فيه الذبال عتيد
ترى الماء منها وهو قان عبابه   كما باشرت ردع الخلوق جلود
وغير المذاكي نجرها غير انها   مسوّمة تحت الفوارس قود
فليس لها إلا الرياح اعنه   وليس لها الا الحباب كديد
ترى كل قوداء التليل ، كما انثنت   سوالف غيد للمهنا وقدود
رحيبة مد الباع ، وهي نتيجة   بغير شوى، عذراء وهي ولود
تكبرن عن نقع يثار، كأنها   موال، وجرد الصافيات عبيد
لها من شفوف العبقري ملابس   مفوفة،فيها النضار جسيد
كما اشتملت فوق الارائك خرد   أو التفعت فوق المنابر صيد
لبوس تكف الموج وهو غطامط   وتدرأ بأس اليم وهو شديد
فمنها دروع فوقها وجواشن   ومنها خفاتين لها وبرود

(ص ٢٣١ ـ ٢٣٧)

أما هذه الحرب التي يذكر ابن هانىء هذا الأسطول في سياقها ، ويصف بلاءه فيها ، فهي هذه الحرب التي ذكرناها ، والتي انتصر المعز فيها على الروم انتصاراً جديراً بأن يعده ابن هانىء امرا جديدا لا عهد لهم به من قبل ، بعد أن ظلوا الفي سنة سادة البحر ، وفوارس سفائنه ، وخبراء مسالكه ومذاهبه ، لا يستعصي عليهم بذلك بلد ، مهما بعد :

قد كانت الروم محذورا كتائبها   تدنى البلاد على شحط وتبعيد
حلّ الذي احكموه في العزائم من   عقد، وما جربوه في المكاييد
وشاغبوا اليم الفي حجة كملا   وهم فوارس قاريّاته السود

فاليوم قد طمست فيه مسالكهم من كل لاجب نهج الفلك مقصود
لو كنت سائلهم في اليم ما عرفوا سفع السفائن من غير الملاحيد

هذه الحرب التي اتيح للمعز فيها هذا النصر ، ولقيت الروم فيها هذه الهزيمة ، كانت حديث الناس في المهدية والمنصورية وسائر مدن أفريقية ، وقد تهللت لها مشاعر ابن هانىء، وتألقت شاعريته بها ، فانعكست فيها مشاهدها كما تمثلت لها ، فأفتنت في رسم خطوطها واسباغ الألوان المختلفة عليها ، ونفخت فيها من روحها ، فجاءت صورا حية نابضة ذكرت الناس بالمتنبي وما كان يجلوه في مدائحه لسيف الدولة من وقائعه مع الروم . ولعل هذه الصور كانت أول مظهر وابرزه لأثر المتنبي في ابن هانىء ، جعلت النقاد يسمونه متنبي الغرب ، فبينها وبين سيفيات المتنبي نسب قريب ، إلى جانب جزالة اللفظ ، ومتانة السبك والحبك .

ولعلنا نستطيع أن نتبين هذا ، فنعرف ما بينه في هذا الشعر وبين المتنبي في سيفياته من وجوه تلاق ووجوه تخالف إذا نحن نظرنا فيما وصف به هذه الحرب ، وخاصة في قصيدتيه الداليتين : « أقوى المحصب من هاد ومن هيد » ، « الاطر قتنا والنجوم ركود » ، وقصيدتيه اللاميتين : « يوم عريض في الفخار طويل » ، « قامت تميس كما تدافع جدول » (ص ٢٠٥ ، ٢٢٤ ، ٥٤٠ ، ٦١٢) إلى جانب ما عرض به لها في غير موضع من مدائحه للمعز .

وهو فيما يصور من أمر هذه الحرب ، وما يشيد به من بلاء المعز فيها ، لا يكاد يغفل التعريض ببني العباس وامرائهم ، وما أغفلوا من أمر الثغور، إكباباً على اللهو ، وانصرافا الى الملذات والشهوات،حتى كانت للروم اليد العليا فيها ، وقد استولوا على مرعش ، وملكوا سروج ، وصارت اليهم عن زربة والمصيصة ، وخربوا ميافارقين والرها ، ونشروا الرعب والفزع في هذه الأقاليم جميعاً ، وأوقعوا بجيش سيف الدولة في غير موقعة له معهم ، ثم استولوا على حلب عاصمة ملكه ، بعد أن قتلوا أكثر أهل بيته ، وخربوا داره ، إلى غير ذلك من المناكر التي كانت انباؤها تصل إلى افريقية ، فتثير الغضب ، وتقوي الأمل في أن يثأر المعز للمسلمين ، وخاصة بعد هذا النصر

الذي اتيح له على الروم ، وقد جعلوا يرسلون رسلهم اليه حريصين على مهادنته ، كما يذكر ابن هانىء ذلك ، وخاصة في داليته : « الأطر قتنا والنجوم ركود » .

وقد رددت شاعرية ابن هانىء أصداء هذا الهوان الذي تعرضت له الثغور ، بمثل قوله :

ولم أر زوارا كسيفك للعدى ... فهل عند هام الروم أهل وترحيب
إذا ذكروا آثار سيفك فيهم ... فلا القطر معدود ولا الرمل محسوب
وفيما اصطلوا من حر بأسك واعظ ... وفيما أذيقوا من عذابك تأديب
ولكن لعل الجاثليق يعزه ... على حلب نهب هنالك منهوب
وثغر باطراف الشأم مضيع ... وتفريق اهواء مراض وتخريب
وما كل ثغر ممكن فيه فرصة ... ولا كل ماء بالجدالة مشروب
ومن دون شعب انت حاميه معرك ... وبىء وتصعيد كريه وتصويب

إلى أن يقول : . .

ومن عجب أن تشجر الروم بالقنا ... فتوطأ أغمار وهضب شناخيب
ونوم بني العباس فوق جنوبهم ... ولا نصر الا قينة واكاويب
وانت كلوء الدهر لا الطرف هاجع ... ولا العزم مردوع ولا الجأش منخوب
هم أهل جراها وأنت ابن حربها ... ففي القرب تبعيد وفي البعد تقريب
ولا عجب، والثغر ثغرك كله ... وانت ولي الثأر والثار مطلوب
سجلو دجى الدين الحنيف سرادق ... من الشمس فوق البر والبحر مضروب
وعزم يظل الخافقين كأنه ... على أفق الدنيا بناء وتطنيب
ويسلم أرمينيه وذواتها ... صليب الارمنيين منصوب

(ص ٥٥ ـ ٦٥)

وكأنما أثار هذا النصر الذي اتيح للمعز على الروم في صقلية ؛ ثغر المسلمين في أفريقية ، شهية اصحابه وسيعته ، وحفز رغبتهم الكامنة في اخضاع الثغور القاصية ، وتحقيق ما طل يلوح لهم ويداعب اخيلتهم ويغمر

قلوبهم من هيمنة الشيعة على بلاد الاسلام جميعا . كما جعل ما يطرق اسماعهم من انباء الهوان الذي مني به المسلمون في الشام والجزيرة يهيج حفيظتهم ، ويحملهم على تعجيل الزحف نحو المشرق لاستنقاذهم مما يعانونه ، وأخذ الثأر لهم مما أصابهم ، وتخليصهم من سيطرة هؤلاء الذين فقدوا كل ما يستطيعون حمايتهم به ، وتحقيق عز الاسلام وكرامته لهم .

كان ذلك هو ما يغمر المهدية والمنصورية وتضطرب به جوانح بطانة المعز وحاشيته . ولكن الأناة التي عرف بها كانت تحمله على ألا يتعجل الأمور قبل أن يحكم الخطة ويعد العدة ويطمئن إلى توفر أسباب النجاح ، وان جعله ذلك لا يلقي بالا إلى ما يستحثه اليه هؤلاء الذين يودون لو أنه بادر المسير دون ريث ، على النحو الذي عبر عنه ابن هانىء في احدى قصائده الطوال التي افتن في موضوعاتها ، وتألق في عرضها ، حتى بلغت مائتي بيت . وذلك إذ يقول :

قصارك ملك الأرض، لا مايرونه	من الحظ فيها والنصيب المقسم
ولا بد من تلك التي تجمع الورى	على لاحب يهدي إلى الحق أقوم
فقد سئمت بيض الظبا من جفونها	وكانت متى تألف سوى الهام تسأم
وقد غضبت للدين باسط كفه	اليهن في الآفاق كالمتظلم
وللعرب العرباء ذلت خدودها	وللفترة العمياء في الزمن العمى
وللعز في مصر، يرد سريره	إلى ناعب بالبين ينعق اسحم
وللملك في بغداد أن رد حكمه	الى عضد في غير كف ومعصم
الى شلو ميت في ثياب خليفة	وبضع لحام في إهاب مورم
فإن يكن العبد اللئيم نجاره	فما هو من أهل العراق بألام
سوام رتاع بين جهل وحيرة	وملك مضاع بين ترك وديلم

(ص ٦٨١ - ٦٨٣)

وإذا كان جامع ديوا ، ابن هانىء يقدم القصيدة التي تضمنت هذه الأبيات بأنها « آخر قصائد الشاعر في مدح المعز ، بعث بها إليه بالقاهرة والناظم بالمغرب» ، فلسنا نرى ما يذهب إليه من ذلك صحيحا ، اذ يعترضه

عندنا أن يذكر فيها، في الأبيات التي قدمناها ، مصر كما يذكر بغداد، ذليلة ضارعة، وقدغضبت لها «بيض الظبا في جفونها» لأن سرير العز فيها رد «إلى ناعب بالبين ينعق ساحم »، يعني كافورا الأخشيدي . فقد كانت مصر اذن ، في الوقت الذي نظم فيه هذه القصيدة ، ما تزال في قبضة كافور . لم تتحول بعد إلى* حكم الفاطميين .

ولعل مما حمل جامع الديوان على هذه الدعوى ورود هذه الأبيات فيها :

واني، وان شط المزار، لراجع إلى ود قلب في ذراك مخيم
بأنصح من جيب المحب على النوى وأطهر من ثوب الحرام المهينم

ولولا قطين في قصي من النوى لما كان في الزاب من متلوم

مما يدل على أنه كان اذ ذاك غائباً عن أفريقية ، وقد تلبث في اقليم ازاب ، فظن أن ذلك مصداق ما تردد عن ابن هانىء في تفسير تخلفه عن المعز في رحيله إلى مصر أنه ذهب إلى المغرب حيث كان يقيم عياله ، ليأخذهم ويرجع بهم ، ثم يلحق وهم معه بالمعز في مصر .

وهذا الذي تردد عن ابن هانىء أمر يثير الشك ويبعث على التساؤ ل : كيف ترك عياله بالمغرب ، أو بالزاب هذه المدة الطويلة ، نحو عشر سنوات ، منذ ارتحاله إلى المعز ، دون أن يذكرهم أو يفكر في استدعائهم ، حتى إذا أزمع المعز الرحيل إلى مصر مضى اليهم ليصطحبهم في اللحاق به ؟

وليس هناك دليل على أن ما تشير اليه هذه الأبيات من سفره إلى الزاب كان بعد رحيل المعز إلى مصر . بل إن ذكر مصر فيها على تلك الصورة يدل على أنه كان قد مضى إلى الزاب لبعض شأنه أو لبعض الصلات التي ربطته بها ـ ولا ريب ـ اثناء مقامه فيها . قبل أن يسير جوهر إلى مصر لفتحها . ومن هنالك بعث إلى المعز بهذه القصيدة ، وقد فاته موسم الانشاد ، فلا بأس أن يستحدث بها موسما على حدة ، منفردا عن وفود المهنئين :

ولما تلقتك المواسم آنفا تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب انني بنفسي لا بالوفد كان تقدمي

فهذه القصيدة اذن تمثل صورة من صور نشاطه الشعري في فترة ما قبل فتح مصر . وبذلك يستقيم ما قدمنا من تأويل الأبيات التي يعبر فيها عن الرغبة في أن يتجه المعز إلى المشرق، وان يستجيب للظبا التي سئمت المقام في جفونها :

وقد غضبت للدين باسط كفه اليهن في الآفاق، كالمتظلم

ولم يلبث المعز ، وقد علم أن كافورا قد مات ، وكان ـ كما يقول الذهبي ـ عجبا في العقل، والشجاعة ، أن أمضى عزمه على فتح مصر، وقد أحكم التدبير لهذا الفتح ، وأعد له عدته ، واطمأن إلى أنه بالغ غايته ، وأن السبيل ممهدة له . ومصر موطأة الأكناف لاستقباله وجعل على الجيش الحاشد المجهز أحسن جهاز مولاه جوهرا ، وقد أمده بالمال الوفير ، وعضده بالامراء والسادة يرافقونه . وخرج بنفسه لتوديعه ، كما كان ابن هانىء في جملة من خرجوا لتشييعه وتوديعه .

وقد أدى ابن هانىء لهذا المشهد حقه ، بقصيدة رائعة ، وصف فيها هذا الحشد الحاشد وصفا بارعا ، وكان هذا الوصف أول ما افتتح به قصيدته ، في اسلوب يدل على مبلغ ما انبهر به ، وذلك إذ يقول :

رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع وقدر راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ سلمت كيف اشيع ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة واني بمن قد قاد الجيوش لمولع
واين؟ ومالي بين ذا الجمع مسلك ولا لجوادي في البسيطة موضع

وكأن هذه الجيوش المتداخلة المتلاحمة التي سدت الأفق ، والتي وصفها ابن هانىء بهذه الصورة ،كانت مما عوق ابن هانىء في اتجاهه إلى

جوهر من ان يبلغ سرادقه في الوقت المناسب ، فجعلته لا يصل إليه إلا بعد أن دعا داعي الرحيل ، وأخذت الجيوش تتهيأ لبدء مسيرتها ، فلم يفته أن يذكر ذلك في قصيدته ، وأن يتخذ منه مدخلاً لرسم صورة أخرى للجيش ، وهو يتأهب للتحرك ، في ضوء المشاعل ، وبين السحب المتراكمة والرعود القاصفة ـ وقد كان ذلك في أواخر الشتاء ـ كما اتخذ منه كذلك مخلصا إلى مدح جوهر :

سموت له بعد الرحيل، وفاتني فأقسمت الا لاءم الجنب مضجع
فلما تداركت السرادق في الدجى عشوت اليه والمشاعل ترفع
فتخرق جيب المزن والمزن دالح وتوقد موج اليم واليم اسفع
فبت وبات الجيش جما سميره يؤرقني والجن في البيد هجع
وهمهم رعد آخر الليل قاصف ولاحت مع الفجر البوارق تلمع
وأوحت الينا الوحش ما الله صانع بنا وبكم من هول ما نتسمع
ولم تعلم الطير الحوائم فوقنا الى اين تستذري ولا أين تفزع
الى أن تبدى سيف دولة هاشم على وجهه نور من الله يسطع

ويمضي في مدح جوهر قائدا للجيش ، فيؤدي صور الجيش أداء شعرياً في خلال مدحه له ، ويتمثله وقد فصل من المغرب وبلغ المشرق ، وأشرف بذلك على الغاية المرجوة ، فاستشعرت العراق هيبته ، واعطت فلسطين قيادها ، إلى آخر ما افتن فيه وتطرق اليه ، مما كان يجيش بخواطر القوم ، وما كانوا يرجونه من وراء هذا الزحف إلى مصر .

لقد كانت شاعرية ابن هانىء في غاية ازدهارها وانتشائها . فقد كانت مسيرة جيش المعز إلى مصر تمثل أملا طال رجاؤه ، وإيذانا بتحقيق ما تمتلىء القلوب تطلعاً اليه ، من ثل عرش العباسيين ، واستنقاذ المسلمين من الهوان الذي يعانونه بسببهم فلا جرم انعكس ذلك على هذه القصيدة التي جعلت تمضي مع ابن هانىء من فن إلى فن ، وتنطلق من باب إلى باب ، متمثلة كل ما يتاح لهذا الجيش الماضي إلى مصر ، حتى ما يخلعه الربيع في هذا الوقت على الطريق من صور الجمال ومظاهر الفتنة وروعة الحسن ، وقد امتد نفسه

حتى نيفت على المائة من الأبيات .

حتى إذا بلغ هذا الجيش مصر ، وتم له فتحها ، ووصلت البشارة بهذا الفتح إلى المعز ، « في نصف رمضان سنة ثمان وخمسين » ، كما يقول المقريزي . ومع هذه البشارة نبأ ما صاحب الفتح من وفود رسل الوزير ابن الفرات ، ابي الفضل ابن حنزابة ، إلى جوهر ، لعقد الصلح بينه وبينهم ، وما تقدموا به من شروط يشترطونها ، وما كتبه جوهر من كتاب الأمان متضمناً سياسته فيهم[1] ، كان لتلك البشارة أجمل وقع في نفس المعز وحاشيته .

ولم تلبث شاعرية ابن هانىء التي كانت لا تزال تحس دبيب النشوة بمسيرة الجيش الفاطمي أن تهللت ، وقد تمثلت الغاية الكبرى التي لا بد ، فيما نقدر ، أن ينتهي هذا الفتح وشيكا اليها ، كما جعل يلوح لها ما لا بد أن يطبق على نفوس بني العباس من روع وفزع ، وقد علموا أن الفاطميين بما اتيح لهم من بلوغ مصر وفتحها قد فتحوا الباب عليهم ، وولجوا الطريق اليهم ، وانهم بالغون عما قريب ، ولا ريب ، غايتهم ، ومنتهون إلى ما زالوا يهددون به من تقويض ملكهم ، واخضاع هذا الأفق كله لسلطانهم ، فإذا بهذه الشاعرية تتفتق عن هذه القصيدة التي تدفقت فيها مشاعره منذ أول ابياتها :

تقول بنو العباس : هل فتحت مصر؟	فقل لبني العباس : قد قضي الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جعفر	تطالعه البشرى، ويقدمه النصر
وقد أوفدت مصر اليه وفودها	وزيد إلى المعقود من جسرها جسر
فما جاء هذا اليوم الا وقد غدت	وايديكم منها ومن غيرها صفر
فلا تكثروا ذكر الزمان الذي مضى	فذلك عصر قد تقضى وذا عصر

هكذا استقبل ابن هانىء هذا العصر الجديد الذي استهل بفتح مصر . ثم مضى ، على هذا النمط ، في خطابه لبني العباس يذكرهم بما ارتكبوا في

---

(١) أورد المقريزي نص هذا الكتاب في (اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٨ - ١٥٣) ، وهو في تقديرنا صورة من صور الأدب الكتابي الفاطمي في هذه الفترة . وربما اتيح لنا أن نعود اليه .

عصرهم ذاك الذي تقضي ، أو بما ارتكبت دولة (النصب) عامة ، من مناكر استلبوا بها حق الأئمة ، طغياناً وجبرية ، ويجادلهم فيما يزعمون في لهجة تنضح بمشاعر الشماتة . فها هم أولاء الذين غلبوا بالأمس على أمرهم يستردون حقهم ، ويطلبون وترهم . إن فتح مصر يعني عنده انقضاء ملك بني العباس ومن يلوذ بهم ويدور في فلكهم :

الا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت اذيالها الدولة البكر
ورد حقوق الطالبيين من زكت صنائعه في آله، وزكا الذخر

ومن هذا يخلص إلى مدح المعز ، مفتناً فيه ، بين المدح التقليدي ، والمدح الخاص بالأئمة ، مشيداً بمآثره ، منوها بما تم له من نصر ، وما هو بسبيل أن يتحقق به . معرجا بعد ذلك إلى جوهر يمدحه ، وقد انفتح له السبيل إلى هذا المدح حين عاد في أثناء مدحه للمعز إلى ذكر مصر ، وما اتيح لها بالفتح ، وما استقبلته به من ترحيب وبشر :

وما ضر مصرا، حين القت قيادها اليك، أمد النيل أم غاله جزر
وقد حبرت فيها لك الخطب التي بدائعها نظم والفاظها نثر
فلم يهرق فيها لذي ذمة دم حرام، ولم يحمل على مسلم اصر
غدا جوهر فيها غمامة رحمة يقي جانبيها كل حادثة تعرو

على أن القاء مصر بقيادها إلى المعز ، واستقبالها جوهراً استقبال التسليم له والترحيب به ، لم يكن يعني أن الأمر صفا لهذه الدولة الجديدة كل الصفاء . فقد كان هنالك من بقايا الاحشيديين ومن كان يلف لفهم ويلوذ بهم من كان يضمر التمرد عليها ، ثم لم يلبث هذا التمرد أن أستعلن في صورة حركات ثورية كان على جوهر أن يواجهها . فانتصب لها واستطاع أن يخمدها ويقضي عليها، وقد قتل من رجالها من قتل، وأسر من أسر من قوادها ورؤسها . وبذلك قضي على عناصر الفتنة ، ورأى أن يبعث بأولئك الأسرى إلى المعز في أفريقية ، مع الهدية التقليدية ، تعبيرا عن ولائه ، ودليلاً على

صفاء الجوله. وكان ذلك - كما يقول المقريزي - « لسبع عشرة خلت من جمادي الآخرة » (يعني سنة تسع وخمسين).

وكان وصول هذه الهدية إلى المعز مناسبة تقدم فيها ابن هانىء اليه ينشده شعره .

ولا ريب أنها كانت عظيمة القيمة بما اشتملت عليه من نياق وخيل ، بمناطقها الذهبية المكللة بالجوهر ، واجلتها الديباجية الفاخرة ، وأعنتها المحلاة بالفضة ، وما كانت تضمه من قباب الديباج المنسوجة بخيوط الذهب . ولكن شاعرية ابن هانىء لم تلبث أن حولتها إلى قطع فنية تبهر الخيال وتمتع الأذن ، كما نرى في مثل قوله :

تراهن أمثال الظباء عواطيا ... لبسن بيبرين الربيع المنورا
يمشين مشى الغانيات تهاديا ... عليهن زي الغانيات مشهرا
وجررن اذيال الحسان سوابغا ... فعلّمن فيهن الحسان تبخترا
فلا يسترن الوشى حسن شيانها ... فيستر أحلى منه في العين منظرا
ترى كل مكحول المدامع ناظرا ... بمقلة احوى ينفض الضال احورا
فكم قائل لما رآها شوافنا ... اما تركوا ظبيا بتيهاء اعفرا
وما خلت أن الروض يختال ماشيا ... ولا أن أرى في أظهر الخيل عبقرا
غداة غدت من أبلق ومجزع ... وورد ويحموم واصدى وأشقرا
ومن أدرع قد قنع الليل خالكا ... على أنه قد سربل الصبح مسفرا
وأشعل وردي، وأصفر مذهب ... وأدهم وضاح، وأشهب أقمرا
وذي كمتة قد نازع الخمر لونها ... فما تدعيه الخمر إلا تنمرا
محجلة غرا، وزهرا نواصعا ... كأن قباطيا عليها منشرا
ودهما إذا استقبلن حوا، كأنما ... عللن إلى الارساغ مسكا وعنبرا

ص ٣٥٣ - ٣٥٤

وتمضي شاعرية ابن هانىء في جلاء ما تمثلته في هذه الهدية من معرض صور وشيات وألوان ، حتى نصل إلى البيت الأربعين من أبيات القصيدة ،

وقد تجاوزت بذلك منتصفها ، ولما تبدأ بعد فيما ينبغي من المدح : مدح جوهر الذي افتن في هديته ، فليؤد له من الثناء عليه حقه . ولا بأس في ذلك ، فهو مولى المعز وصنيعته ، وهو اذ يمدحه فانما يمدح بمدحه المعز الذي اختاره وصنعه ووجهه . وبذلك يخلص إلى مدح المعز خاصة . وأكثر ما يمدحه به في هذه القصيدة الجود والكرم ، والشجاعة وتدبير الحرب .

وإذا كان الديوان يزعم ، فيما قدم به لهذه القصيدة ، ان ابن هانىء قالها في وصف هدية جوهر بعد أن اخضع بلاد المغرب ، وانتهى إلى البحر المحيط سنة ٣٤٨ ، فذلك زعم مردود ، أولاً ، بأنه لا يتفق مع ما نعرفه ، وسبق التعريف به ، من نسق حياة ابن هانىء ، وثانياً بأن هذه القصيدة لم تشر من قرب أو من بعد إلى أظهر ما في هذه الهدية واطرفه ، وهو سمك البحر المحيط ، وقد « بعثه في قلال الماء » إلى المعز ، كما يقول المقريزي .

وإلى جانب هاتين القصيدتين : قصيدة فتح مصر ، وقصيدة هدية جوهر القادمة من مصر ، يحتفظ لنا الديوان ، مما يمثل نشاط ابن هانىء الشعري في فترة ما بين فتح مصر ، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وانتقال المعز اليها ، سنة اثنتين وستين ، بقصيدة أخرى لم تكن من ايحاء المشرق ، بل من ايحاء المغرب ، إذ صدرت عن بعض الأحداث التي كان المغرب الأوسط يضطرب بها ، تمردا على المعز ، وتجديدا لحركات الخوارج التي استبدت مقاومتها بنشاط الدولة في أيام الملك المنصور ، حتى بدا أنه قضى عليها . ولكنها لم تلبث أن انبعثت في أيام المعز على يد رجل من زناتة يقال له ابن الخزر ، أعلن الثورة عليه ، واضطره إلى أن يخرج لقتاله بنفسه ، فلم يقدر عليه ، وما زال الأمر بينه وبينه بين حرب ومهادنة ، إلى أن تولى حربه بلكين بن زيري ، واستطاع أن يظفر به ويقضي عليه ، سنة ستين وثلاثمائة .

عن هذه الأحداث، وهذا الظفر الذي اتيح للمعز على ابن الخزر ، انبعثت شاعرية ابن هانىء بهذه القصيدة التي يستهلها بقوله :

كدأبك، ابن نبي الله، لم يزل   قتل الملوك ونقل الملك والدول

اين الفرار لباغ أنت مدركه لأمه ملء كفيها من الهبل
هيهات يضحي منيع منك ممتنعا ولو تسنم روق الأعصم الوعل

هذا الباغي الذي لم تمنعه أوعار الجبال التي اعتصم بها حين خرج المعز لقتاله هو ابن الخزر الذي لا يلبث ابن هانىء أن يذكره باسمه ونعته ، ويصور مقدمه ومقدم اصحابه على المعز رءوسا على اسنة الرماح ، بقوله :

لقد قصمت من ابن الخزر طاغية صعب المقادة اباء على الجدل
اذ لا يزال مطاعا في عشيرته تلقي اليه أمور الزيغ والنحل
يكاد يعصى مقادير السماء إذا رمى بعينيه بين الخيل والابل
حسمت منه قديم الداء، متصلا بالجاهلية، لاه بالعدى هزل
من جاحدى الدين والحق المنير ومن عادي الأئمة ، والكفار بالرسل
ومن جبابرة الدنيا الذين خلوا وانزل الله فيهم وحيه فتلى
اتاك يعلوه من عصيانه خفر حتى كأن به ضربا من الخجل
يديره الرمح مهتزا بلا طرب الى الكتائب، مهتزا بلا جذل
مرنحا من خمار الحتف صبحه وليس يخفي مكان الشارب الثمل
كأنما غض جفنيه الازوم على صدر القناة، أو استحيا من العذل
وما نظرت اليه كلما جعلت تمتد منه برأس الفارس الخطل
الا تبينت سيما الغدر بينة عليه والكفر للنعماء والغيل(؟)
تصغي اليه قطوف الهام دائبة وان اسماعها عنه لفي شغل
برز بصفحته لولا تقدمه لم يعرف الليث بين الضب والورل
اذا التقى رأسه علوا وارؤسهم سفلا رأيت أميرا قائم الخول

وما يزال ابن هانىء في جلاء هذه الصور التي تكشف عن براعة حقيقية في فن التصوير الشعري إذ ينفخ فيها من روحه ، ويبث فيها من عواطفه وأفكاره ، ما يجعلها حية نابضة ، تثير مشاعر المستمع اليها والقارىء لها ، وتشركه معه فيما تمثله فيها ، إلى أن يأخذ في الحديث عن المعز ، وما أوتي من مواهب اختصه الله بها ، وعن خطر هذا الظفر الذي أظفره الله به على ابن الخزر ، وقد كان انشغاله به مما كان يشغله عن الانتقال إلى مصر ، للوثوب

منها على المشرق ، وتقويض ملك بني العباس ، وتوحيد كلمة المسلمين تحت راية الشيعة .

وتردد القصيدة أصداء ذلك الذي كان يسيطر على فكر ابن هانىء ، وتعبر عن تطلعه إلى مصر ، وقد انفتح بالخلاص من ابن الخزر الطريق اليها :

الآن لذت لنا مصر وساكنها وللسوابح والمهرية الذمل
ما مكثنا مبشر العافين؟ ان لنا في البين شغلا عن اللذات والغزل
فليتنا قد أرحناهم وأنفسنا أو استراحت مطايانا من العقل

وبعد ، فها هي ثلاث قصائد نستطيع أن نحدد تواريخها ، أولاها قصيدة الفتح سنة ٣٥٨ ، والثانية قصيدة الهدية ، سنة ٣٥٩ ، والثالة قصيدة الظفر بابن الخزر ، سنة ٣٦٠ .

وهناك قصيدة رابعة الا تكن كهذه الثلاث في القطع بتاريخها ، فإنها ، فيما نحسب تحمل في ثناياها الاشارة إلى هذه الفترة التي نحاول أن نستقصي ما جاء في الديوان راجعاً اليها ، وهي القصيدة الثلاثون التي يبدؤها ابن هانىء بقوله :

قد سار بي هذا الزمان، فأوجفا ومحا مشيبى من شبابي احرفا
إلا أكن بلغت بي السن المدى فلقد بلغت من الطريق المنصفا

ص ٤٢٩

ويمضي في هذه المقدمة متحدثا عما صار اليه ، متذكرا ما كان قبل عليه من اللهو والغزل والفتك . وقد جعل يتمثل نفسه في خلال ذلك ممتطياً صهوة فرس يمضي به إلى الغواني ، ويشق به الدياجي ، وقد انتصبت اذناه ، مترصدا متوجسا من أي نبأه ، فكان مما وصف به هاتين الاذنين المنتصبتين ، تأخذهما الرجفة بين حين وآخر : قوله :

فكأنما وقع الصريخ اليهما بحصار انطاكية فاسترجفا

وما يكاد يذكر انطاكية وحصارها حتى يأخذ في وصف ما امتحنت به ،

وما هو إلا جزء مما ابتلى به المسلمون في المشرقين ، ولعله يعني بهما العراق والشام ، فيقول ، في صفة ذلك ، منددا بمن يعتبرهم مسؤولين عنه :

ثغر اضاع حريمه اربابه ... حتى أهين عزيزه فاستضعفا
يصل الرنين إلى الرنين لحادث ... يربد منه البدر حتى يكسفا
مالي رأيت الدين قل نصيره ... بالمشرقين، وذل حتى خوفا؟!
هم صيروا خدما تسوس أمورهم ... يا للزمان السوء! كيف تصرفا
من كل مسود الضمير، قد انطوى ... للمسلمين على القلى وتلففا
عبدان عبدان وتبع تبع ... فالفاضل المفضول والوجه القفا
أسفي على الأحرار! قل حفاظهم! ... إن كان يغني الحر أن يتأسفا
لا يبعدن الله الا معشرا ... أضحوا على الاصنام منكم عكفا
هلا استعان بأهل بيت محمد ... من لم يجد للذل عنكم مصرفا
يا ويلكم ! افمالكم من صارخ ... الا بثغر ضاع أو دين عفا؟!
فمدينة من بعد أخرى تستبي ... وطريقة من بعد اخرى تقتفي
حتى لقد رجفت ديار ربيعه ... وتزلزلت أرض العراق تخوفا
والشام قد أودى وأودى أهله ... إلا قليلاً، والحجاز على شفا

حتى إذا أدى هذه الصورة التي تثير الفزع ، ورسم جوانبها بما يكتنفها من ظلمات حالكة ، وما يحلق عليها من نذر صارخة مدلهمة ، أخذ يلوح بما هو جدير ، عنده ، ان يكشف هذه الظلمات ، ويصرف هذه النذر ، وما يشرق به الأمل في أن ينجز الله وعده ، وهو الأمل المنوط بالمعز تحقيقه ، ثم يلتفت إليه قائلاً له :

فإلى العراق! وذر لمن قدمته ... مصرا. فهذا ملك مصر قد صفا

فاشارة ابن هانى ، وهو يتحدث عن فرسه ، إلى حصار انطاكية ، ووصفها بأنها ثغر اضاع اربابه حريمه ، ثم ما استطرد إليه ، يدل على انه كان ينشىء هذه القصيدة في الوقت الذي كانت انباء هذا الحصار تطرق اسماع المسلمين وتتردد بينهم ، فتثير حفيظتهم ، وتهيج في أنفسهم مشاعر السخط

والقلق ، وتحضر في اخيلتهم سائر صور الهوان الذي تعرضوا له ، ومنوا به في خصومتهم مع الروم ، كما تبعث في قلوبهم أحاسيس النقمة على من يسوسونهم ويتولون أمورهم ، من خليفة ووال وأمير

وقد كانت انطاكية « قصبة العواصم من الثغور الشامية » ، كما يقول ياقوت ، فلا جرم كانت مطمح أنظار الروم ، في حربهم مع المسلمين ، وبذلك أناخوا عليها فحاصروها ، وانتهى هذا الحصار بسقوطها في أيديهم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، أي أن ذلك كان في أوائل هذه الفترة : فترة ما بين فتح مصر وانتقال المعز اليها .

ومن ذلك كان لنا أن نستظهر أن هذه القصيدة كانت من نتاج ابن هانىء الشعري في هذه الفترة ، وان لم نستطع أن نحدد تاريخها كما استطعنا ذلك في القصائد الثلاث السابقة .

وكذلك كانت ، كما كانت سابقتها ، تعبيراً عما كان يسود مجتمع البلاط الفاطمي خاصة من ضيق بالخلافة العباسية وتنديد بها وبأمرائها وولاتها واتباعها ، وبما تسبب فيه ضعفهم وهوانهم من خذلان للمسلمين ، وتعريضهم للذل والمهانة والضياع . كما كانت فوق ذلك تعبيرا عما كان يسود ذلك المجتمع من تطلع إلى الزحف نحو العراق وما إليها ، لتقويض تلك العروش المتهالكة ، وادراك ثأر الفاطميين ، واعادة الحق إلى نصابه . وما دام ملك مصر قد صفا للمعز ، وفيها من قدمه اليها ، ووثق به في سياستها وتدبير أمورها ، فلا عليه أن يتجاوزها ، ويمضي الى العراق مباشرة .

ولم يكن المعز ، وقد قدمنا من صفته ما يبرز ملامح شخصيته وسماته العقلية ، بالرجل الذي يصرفه عما يفكر فيه ويدبر له ، ويأخذ نفسه فيه بالاناة والريث ، ناظرا في جميع جهاته ، متعجل يتعجله ، ويزين له ما تدفع اليه العاطفة المهتاجة ، أو ما يوحي به الخاطر العابر . فكما لم يغره من قبل استحثاث ابن هانىء ومن كان يعبر عنهم إلى غزو مصر ، فتلبث حتى فرغ من اعداد الجيش ، وتوفير المدد اللازم لمواجهة ما هو مقبل عليه ، وتهيئه الطريق

بالآبار يحفرها ، وما إلى ذلك ، وحتى يعلم أن دعوته في مصر قد آتت أكلها ونضجت ثمارها ، وانه لم يبق ثمت بعد موت كافور ، وانفراط عقد الاخشيديين من يخشى بأسه ، ويرهب جانبه ، ثم اختيار الوقت الملائم لمسيرة الجيش . كذلك ينبغي له اليوم أن يدبر أمر هذه البلاد ، فلا يدع فيها سبباً من أسباب الفتنة ولا مصدرا من مصادر الشغب ، كهذا الذي جعل يتمثل في تمرد ابن الخزر ، ويطمئن إلى دعوة التشيع التي اقرها فيها ، فينظر فيما ينبغي أن يكون لاستمرار بقائها ، قبل أن ينقل مقر دولته ، ويتحول إلى مصر مع أسرته ، وحتى لا تتبدل صبغتها بعد رحيله ، ولا ينتكس أمرها فتعود هذه البلاد إلى ما كانت عليه قبل قيام هذه الدولة .

وكل ذلك يقتضي منه أن يطيل النظر ، ويمعن في تقليب الأمور على وجوهها المختلفة، وأن يحكم تدبيره في بصيره واناة.

فإذا بلغ من ذلك المبلغ الذي يمكن أن يطمئن اليه ، وكان من ذلك أن وكل أمر أفريقية والمغرب إلى يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي ، فجعله نائبه في هذا الجانب ، فقد آن له أن يمضي عزمه على المضي إلى مصر .

ماذا كان من شأن ابن هانىء في اثناء تأهب المعز للرحيل إلى مصر واخذه فيه ؟ لقد امضى المعز نحوا من ستة أشهر ، منذ ترك المنصورية ، موطن حكمه ومقر خلافته ، في شوال سنة احدى وستين وثلاثمائة ، متجها إلى مصر ، الى أن غادر أفريقية في ربيع الثاني سنة اثنتين وستين ، متنقلاً ما بين سردانيه التي ظل بها اربعة أشهر مع أهله وذويه ، وقابس وطرابلس . فأين كان ابن هانىء في خلال هذه الفترة ؟ وما بالنا لا نجد في شعره أدنى اشارة الى هذا الرحيل ، وهو الذي كان ما يزال يرقبه ويستحث المعز اليه ، وكان ـ على أية حال ـ من الأحداث الخطيرة التي كان لا بد أن تحرك وجدانه وتهز شاعريته ؟

يقول ابن خلكان عن أيام ابن هانىء الأخيرة : « لما توجه المعز إلى الديار المصرية ، شيعه ابن هانىء ، ورجع الى المغرب لأخذ عياله والالتحاق

به ، فتجهز وتبعه . ولما وصل الى برقة اضافه شخص من تلك الديار ، فأقام عنده في مجلس الأنس . فيقال : انهم عربدوا عليه فقتلوه . وقيل : خرج من تلك الديار وهو سكران ، فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنه وجد في سانية من سواني برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وكان ذلك بكرة الأربعاء لسبع بقين من رجب سنة ٣٦٢ .

وهذا التاريخ ، تاريخ وفاة ابن هانىء ، طال التماس ابن خلكان له ، حتى ظفر به ـ كما يقول ـ « في كتاب لطيف لأبي الحسن علي بن رشيق القيرواني » . وظاهر أن هذا التاريخ هو وحده الذي صدر به عن كتاب ابن رشيق .

فابن هانىء ـ على ما يحكيه ابن خلكان ـ اكتفى بتشييع المعز عند توجهه إلى الديار المصرية ، دون أن يذكر اين كان تشييعه له : افي المنصورية وهو خارج إلى سردانية ، أم في سردانية وهو متجه إلى قابس ، أم في قابس وهو متجه منها نحو طرابلس .

وأما ابن الأثير فيقول ان ابن هانىء كان مرافقاً للمعز في سيره من سردانية ، « فلما وصل إلى برقه . . . قتل غيلة ، فرؤي ملقى على جانب البحر ، قتيلاً ، لا يدري من قتله . وكان قتله أواخر رجب سنة ٣٦٢ .

فها نحن من ذلك ازاء روايتين : تذهب احداهما إلى أنه عاد إلى المغرب ـ وربما كان يعني المغرب الأوسط ـ لاحضار عياله ، بينما مضى المعز في طريقه إلى مصر ، وانه رجع ادراجه ليلحق بالمعز ، حتى اذا كان في برقة ، وقد سبق ركب المعز ، ادركته منيته ، في احدى تلك الصور الثلاث ، في سياق يدل على أنه كان وحده لا عيال معه . وتذهب الأخرى إلى أنه كان في حاشية المعز منذ كان في سردانية ، يستكمل أهبته للرحلة ، حتى إذا فصل عنها مضى معه ، إلى أن بلغ الركب برقة فاغتيل هنالك .

وإذا كانت الروايتان تتفقان في مكان وفاته ، وهو برقة ، وفي زمانها ، وهو أواخر رجب ، يعني أنه مات وهو في طريقه إلى مصر ، قبل أن يبلغها

المعز . فانهما تختلفان فيما بعد ذلك . اكان حين ادركته الوفاة مرافقاً للمعز ، أو ماضيا في طريقه ليلحق به .

وهناك ما يمكن أن يكون بمثابة رواية ثالثة ، وهو ما يقدم به الديوان احدى قصائد ابن هانىء في مدح المعز : « أصاخت فقالت وقع اجرد شيظم » ، اذ يقول : « وهذه القصيدة آخر قصائد الشاعر ، بعث بها اليه في القاهرة ، والناظم بالمغرب » . فذلك يعني أن المعز بلغ مصر ، وكان ذلك في شهر رمضان ، وابن هانىء ما يزال في المغرب .

وقد رأينا فيما عرضنا به لهذه القصيدة من قبل ، بطلان هذه الدعوى التي قدمتْ بها ، إذ أن من ابياتها ما يدل على أنها قيلت قبل هذه الفترة ، وكافور على قيد الحياة .

وعندنا أن هذه المقدمة التي وضعت بين يدي هذه القصيدة قد أخطأت مكانها ، وإنما مكانها الصحيح فيما نرى هو أن تكون بين يدي القصيدة الرائية :

ما شئت، لا ما شاءت الأقدار فاحكم، فانت الواحد القهار

ففي ابياتها ما يدل على أن المعز كان وقت انشائها مقيماً في مصر ، وذلك إذ يقول :

امعز دين الله ، إن زماننا بك فيه بأوجل واستكبار
ها ان مصر غداة صرت قطينها احري لتحسدها بك الأقطار

فبهذين البيتين ، وبما نعلم من أن ابن هانىء لم يتح له أن يدخل مصر ، لا نجد بداً من القول بأنه أرسل بهذه القصيدة إلى المعز ، كما يمكن بهذا ، في غير تحرج ، اعتبارها آخر قصائده فيه .

وبعد ، فهل لنا أن نقول ان ابن هانىء لم يكن ، وهو بافريقية ، منقطع الصلة تماما باقليم الزاب ، أو المغرب الأوسط ، وان اقامته الطويلة به ، وما كان يحظي به فيه من رعاية ومكانة رفيعة ، انشأ له فيه علاقات

قوية ، كـانت ما تزال تدعوه اليه ، وقد استظهرنا شيئاً من ذلك في حديثنا عن قصيدته : « أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم » ، وان بعض ذلك كان في الوقت الذي ارتحل فيه المعز إلى مصر ، فبعث له من هنالك بهذه القصيدة ؟

ذلك فرض قريب لعله يزيل كثيراً من الغموض والاضطراب في الأخبار التي تحكى عن ابن هانىء في هذه الفترة من حياته .

ولا علينا بعد ذلك أن نقول إنه أخذ طريقه إلى مصر ، ليلحق بالمعز فيها . ولكن اجله وافاه عندما بلغ برقة ، موتا أو اغتيالا ، على أن نجعل ذلك في سنة ٦٣ بدلا من ٦٢ ، وما ايسره تصحيفاً .

ولعل هذه الملابسات التي لابست هذه القصيدة واختصت بها كانت مما جعل عددا غير قليل من مخطوطات ديوان ابن هانىء غير متضمن لها ، وذلك إلى جانب ما يذكر من التحرج من ايرادها . فقد اجتمع للدكتور زاهد علي ثمان عشرة مخطوطة ، من بينها تسع مخطوطات لم ترد فيها . ومن هذه التسع مخطوطة (لندن) التي جعلها عمدته في تحقيق الديوان ، لأنها - كما يقول - « اقدم النسخ الموجودة في المكاتب ، وأجلها قدراً ، وأقربها إلى الأصل ، ومن النسخ التي يعتمد على روايتها » .

وهذه القصيدة هي التي كثر الكلام فيها ، ومؤاخذة ابن هانىء على ما قال في مطلعها ، مؤاخذة تصل إلى حد رميه بالالحاد والكفر ، وحتى قال الدكتور زاهد علي في تفسير اغفال بعض النسخ المخطوطة لها أن ذلك راجع إلى تحـرج ناسخيهـا من إثباتهـا ، على الـرغم من أن من هذه النسـخ من كان ناسخها شيعي المذهب ، كالنسخة التي يرمز اليها بالرمز (كج) والمحفوظة في مكتبة بادليان باكسفورد ، فاسم ناسخها ومقامه : « محمد بن شهاب الجؤذري القاطن بالغرى » يدل على شيعيته .

ومهما يكن من أمر ، فما نحسب أن مطلعها ، على الرغم من نبوه وسوء وقعه ، بهذه الخطورة التي يذكر بهاوينبىءوقعه عنها ، بالقياس إلى كثير مما جاء في شعر ابن هانىء في صفة المعز . فالشطر الأول من هذا المطلع لا

يخرج عما يذهب اليه المعتزلة من أن مشيئة الانسان حرة ، وأنه هو الذي يخلق افعاله الاختيارية ، والشطر الثاني لا يزيد على أن ينسب إلى المعز صفتي الانفراد والقهر . وفي الأسلوب الشعري متسع لمثل هذا .

ولكن الأمر الذي يلفت نظر الناقد هو هذا الاقتضاب في توجيه الكلام إلى المعز ، دون مقدمة يقدمها ، ويتأنق فيها ، ويودعها بعض مشاعره وذكرياته ، ويعبر بها عن براعته الشعرية وقدرته الفنية ، كما هو شأنه في معظم مدائحه للمعز .

فهذه القصيدة هي ، من هذه الناحية ، واحدة من قلة من قصائد ابن هانىء هجمت على الموضوع مباشرة ، كقصيدته التي قالها في انتصار المعز على الروم في موقعة المجاز : « يوم عريض في الفخار طويل » ، أو قصيدته التي قالها في صفة جيش جوهر ، وقد عاد من توديعه : « رأيت بعيني فوق ما كنت اسمع » ، أو في فتح مصر : « تقول بنو العباس هل فتحت مصر » ، أو في الانتصار على ابن الخزر : « كدأبك ابن نبي الله لم يزل ، قتل الملوك ونقل الملك والدول » .

وكلها ـ فيما يبدو ـ صادرة عن انفعال طاغ بهذا الحدث أو ذاك من الأحداث الخطيرة ، ملك على الشاعر جوانب نفسه ، ولم يدع له إلا أن ينطلق مع هذا الانفعال معبرا عنه ، منفساً بذلك عما يأخذ بأكظامه منه ، دون أن يلقي بالا إلى ما جرت عليه تقاليد الشعراء من هذه المقدمات ، يتأنقون في صياغتها ، ويفتنون في صورها ، ليخلصوا منها إلى المدح .

كان ذلك هو شأن ابن هانىء ، وقد عرف أن المعز بلغ مصر واستقر بها ، وأنه حقق بذلك مشيئته في أن يحكم ذلك الأفق من الآفاق الاسلامية ، فهو ينوه بهذه المشيئة التي استطاعت أن تحقق نفسها . ولعله حين يذكر الأقدار وينفي أن لها مشيئة نافذة انما كان يعرض بجماعة من الناس كانوا يجعلون من تخلف المعز عن النهوض إلى مصر هذه الفترة الطويلة دليلاً على أن الأقدار لا تريد له أن يذهب اليها . وفي نشوة هذا الذي كان ابن هانىء يحس

به اندفع يدعوه إلى أن يمارس سلطة الحكم في ملكه هذا الجديد ، فهو وحده الحاكم القهار لخصومه . كما انطلق يسبغ عليه من الصفات ما يراه اتباع الأئمة في أئمتهم ، يدعوه بها :

وكأنما أنت النبي محمد   وكأنما انصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به   في كتبها الاحبار والأخبار
هذا امام المتقين ، ومن به   قد دوخ الطغيان والكفار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه   وبه يحط الإصر والاوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غدا   حقا وتخمد أن تراه النار
من آل أحمد، كل فخر لم يكن   ينمي اليهم ليس فيه فخار

ولا يكاد يمضي في هذه الصفات حتى يأخذ في التنويه بالجيش وفرسانه وأفراسه . في خلال ذلك يذكر (فرقلس) و(الدمستق) ، فيقول عن الأولى :

لله غزوتهم غداه فرقلس   وقد استشبت للكريهة نار

وفرقلس ـ كما يقول ياقوت ـ « اسم ماء قرب سلمية بالشام » ، وكانت فيه احدى المواقع التي دارت بين الجيش الفاطمي الذي خرج من مصر بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي فاستولى على دمشق ، ولم يلبث أن اصطدم بالقرامطة فدارت الحرب بينه وبينهم في غير موقع ، ومن هذه المواقع فرقلس هذه ، وربما كان مقتل جعفر بن فلاح فيها. أما الدمستق فيذكره ، وهو ينوه بالجيش وبأسه ، فيقول :

هل للدمستق بعد ذلك رجعة   قضيت بسيفك منهم الأوطار
أضحوا حصيداً خامدين واقفرت   عرصاتهم وتعطلت آثار
كانت جنانا أرضهم معروشة   فأصابها من جيشه اعصار
أمسوا عشاء عروبة في غبطة   فاناخ بالموت الزؤام شيار
واستقطع الخفقان حب قلوبهم   وجلا الشرور وحلت الأدعار

وكأنه يشير بهذه الأبيات إلى موقعة بين جيش الفاطميين وجيش

الرومَ ، انتصر فيهاعليه، وخرب ما كان بيده من مدن . وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نعين هذه الموقعة ، فليس يبعد أن تكون هي الموقعة التي جرت بميافارقين بالجزيرة ، وانهزم فيه الدمستق هزيمة منكرة مات في عقبها . فما إن بلغت انباء هذه الموقعة إلى المغرب حيث كان يقيم ابْن هانىء حتى اسند فضل هذا النصر على الدمستق إلى الجيش الفاطمي ، فردد ابن هانىء صداه في قصيدته على هذا النحو[1] .

ويقود الكلام عن هذا النصر على جيش الروم ـ كما هي عادة ابن هانىء ـ إلى ذكر العباسيين ابناء نتيله ، كما يدعوهم ، إذ يقول لهم :

انبـاء نتله! مـا لكـم ولمعشـر	هم دوحـه الله الـذي يختـار
ردوا اليهم حقهم، وتنكبـوا	وتحملوا، فقـد استحم بـوار
ودعوا الطريق لفضلهم فهم الأولى	لهـم بمجـهلة الـطريـق منـار
كما تنهضون بعبء عار واصم	والعــار تتأنف منكم والنــار
يـلهيـهـم زمـر المثـاني كـلما	الهـاكـم المـثـني والمـزمـار

وكانت هذه القصيدة ـ فيما نقدر ـ آخر شعر ابن هانىء ، أو آخر ما حفظ لنا من شعره ، ولم يلبث بعدها أن أخذ طريقه إلى مصر ، ليلحق بالمعز ، فوافته منيته في برقة .

وبذلك تنتهي هذه الفترة من تاريخ التشيع في افريقة ، لتبدأ بعد ذلك الفترة الرابعة ، ولتبدأ محاولتنا تبين صورة الحياة الأدبية المتأثرة بالتشيع فيها . والله ولي العون والسداد والتوفيق .

* * *

---

(١) أنظر لتفصيل الكلام عن هذه الوقعة تجارب الأمم لمسكويه ج٢ ص ٣١٢ ، في حوادث سنة ٣٦٢ وكانت هذه الموقعة آخر يوم من شهر رمضان من هذه السنة .

الفصل السابع

التشيع في المغرب
بعد انتقال الدولة العبيدية
إلى مصر

تمتد هذه الفترة الرابعة والأخيرة من فترات مرحلة التشيع في المغرب العربي قدر ما امتدت الفترات الثلاث السابقة ، فقد امتدت من أواخر سنة احدى وستين وثلاثمائة حتى سنة خمس وثلاثين واربعمائة ، اربعا وسبعين عاما ، كما امتدت الفترات الثلاث الأولى ، منذ دخل أبو عبد الله الداعي أرض كتامة سنة ثمان وثمانين ومائتين إلى أن تحول المعز عن افريقية إلى مصر ، مثل هذه المدة .

ولكنها تختلف عنها اختلافا كبيرا ، فقد كانت تلك الفترات الثلاث ، في حقيقة أمرها ، فترات عارضة في حياة المغرب ، لم يلبث بعدها أن جعل يعود إلى ماضي عهده ، وكانت هذه الفترة الرابعة هي الفترة التي جعل يخلص فيها من آصار تلك الفترات ، ويتحرر من آثارها .

وقد كان هذا الأفق القصيّ من آفاق الأرض الاسلامية هو المطمح الذي ما تزال تطمح اليه أنظار المغلوبين على أمرهم ، الطامحين إلى استرداد ما ضاع منهم ، والتدبير لذلك، بعيداً عن السلطات التي تناوئهم .

فمن قبل لجأ اليه عبد الرحمن بن معاوية ، حين سقطت دولة بني أمية ، وجعل العباسيون يتعقبون رجالها ، ويأخذون من يقع في أيديهم منهم بأنواع النكال ، فاستطاع أن يفلت منهم ، ولم يجد إلا أن يمضي على وجهه

إلى المغرب ، حتى بلغ مكناسة ، ثم اتيح له أن يعبر إلى الأندلس ، سنة ثمان وثلاثين ومائة ، ويؤسس فيها الدولة الأموية الأندلسية .

كما لجأ اليه بعد ذلك ادريس بن عبد الله ، من ذرية الحسن بن علي ، بعد أن فشلت الثورة التي شارك فيها على الخليفة العباسي موسى الهادي ، سنة تسع وستين ومائة ، فنجا بنفسه ، ومضى إلى المغرب الأقصى ، وحف به كثير من أهله ، ونزل مدينة وليلى ، وأسس بها دولة الادارسة .

ولعل اتجاه الدعوة الاسماعيلية إلى المغرب في القرن الثالث كان من هذا القبيل ، فقد كان لا بد لهذه الدعوة التي تحيط بها الريب من كل جانب أن تجد منطلقاً لها في جو آمن ، وأن تجد قوماً يستجيبون لها ويشدون أزرها دون عقد أو رواسب ، فلم يكن إلا المغرب الأقصى يحقق لها ذلك ، فاتخذت سبيلها إليه ، على النحو الذي سبق القول فيه .

ولكنها لم تظفر بما ظفر به عبد الرحمن بن معاوية في الأندلس ، أو ادريس بن عبد الله في المغرب ، فما كاد نشاطها يتوج بانشاء دولة بافريقية يتولاها عبيد الله المهدي ، حتى وجدت هذه الدولة نفسها في معترك اشتبكت فيه الخصومات معها وحولها ، إذ نشبت الفتنة بين أهل القيروان ورجال المهدي من قبيلة كتامة . وبلغت هذه الفتنة حدا اضطر المهدي إلى أن يتوجه للدعاة أن يكفوا عن الدعوة بين العامة ، يعني من عدا الشيعة ، حتى تخف حدة هذه الفتنة . ثم جعل يواجه الثورة عليه في جزيرة صقلية ، وفي تاهرت في المغرب الأوسط ثار عليه خوارجها ، كما بدأت في عهده ثورة الخوارج الكبرى التي قادها ابو يزيد بن كيداد ، واستفحل امرها في عهد ولده القائم ، واستطارت نيرانها في عهد المنصور، واشتعلت بها جوانب افريقية والمغرب الأوسط ، واستطاعت أن تجتذب اليها عامة الناس ، وان تظفر بانتصار الفقهاء لها ، كما رأينا من قبل . وما كادت تنتهي - على وجه ما - حتى مات المنصور وجاء المعز . ولم ير بداً من أن يتخذ في سياسة الدولة منهجا جديدا . فابتدأت به مرحلة جديدة تنزع إلى الموادعة . وقد استيقنت الدولة ألا مقام لها في المغرب ، واخذت في التهيؤ للرحيل إلى مصر ، وتدارك

ما أخطأها في الغزوات الثلاثة التي حاولتها من قبل ، في عهد المهدي والقائم ، فارتدت فيها على أعقابها .

وظهر بهذا أن تحول الدولة العبيدية من المغرب إلى مصر كان مقترنا بعاملين : أصلي وطارىء . أما الأول فهو أن المغرب لم يكن يمثل للعبيديين الا مكانا يستطيعون أن يلجأوا اليه ، آمنين من تعقبهم وافساد تدبيرهم ، ويملكون فيه أن يبثوا دعوتهم ، ويظفروا من أهله بمن يتشيع لهم ، حتى إذا أثمر بذرهم تحولوا قليلاً نحو المشرق ، فاتخذوه فيه دولة لهم ، فإذا استحكم لهذه الدولة أمرها ، واجتمعت لها أسبابها ، وثبوا إلى المشرق ليخضعوه لسلطانهم ، وليثأروا لما أصابهم .

هذا هو ما عانوه في المغرب من الاعراض عنهم والإنكار عليهم والتشهير بهم ، ومن هذه الثورات المتلاحقة التي التقت حولها النوازع المختلفة ، دون أن يغني عنهم عنف كلفهم الكثير ، أو موادعة اصطنعها المعز ، وأخذ اتباعه بها ، وبالصبر على ما ينالهم من أذى ، وتوطينهم على ذلك فيما يتعرضون له ، كما يمكن أن نراه فيما وقع به للنعمان حين كتب اليه يشكو من تبرم الناس به وإيذائهم له وافترائهم عليه ، فكان مما عقب به على هذه الشكاة ، يأخذه بما ينبغي عنده أن يأخذ به نفسه : « هذه الالسنة الحداد ، هي متاجر النساء والسفل والاوغاد ، تذهب بالاعراض عنها ، وتزول بالاطراح لها ، وتزيد وتعظم ما علم السفل بنفاقها ، فلا تصغ إلى سماعها ، ولا تلق بالا لها . . . ومع هذا فللملك سياسة يساس بها ، ولنا حدود لن نتعداها ، والله يظهر أمره على رغم الراغمين ، ولو كره المشركون » (المجالس والمسايرات ص ٣٥٠) .

هكذا كان عهد العبيديين في المغرب ، وفي افريقية خاصة ، في أوله وآخره ، وان وجدوا من قبائل البربر في المغرب الأقصى من يصغي إليهم ويحتضن دعوتهم ، فقد كان ذلك مما أضاف عنصرا جديدا إلى العصبية بينهم . وكان طبيعياً بالقياس إلى رجل كالمعز ، مفطور على النظر والتأمل ، أن يدرك أبعاد هذا الوضع ، ويمتلىء قلبه يأسا من بلوغ الغاية التي كان العبيديون يطمحون

اليها ، ولعلنا نشعر بهذا في مثل هذه العبارة يقولها للنعمان : « وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهال . فانا لم نزل نتلطف في هدايتهم ، ومسايرة احوالهم ، الى أن يختم الله لنا بالحسنى ، والخروج من بين اظهرهم على أحمد حال » (المجالس والمسايرات ص ٣٩٦) .

وكان ذلك مما عجل بتحول العبيديين عن المغرب ، دون أن يبلغوا فيه كبير شيء ، لا من الناحية المذهبية ، ولا من الناحية السياسية وهي تقويض ملك الأمويين في الأندلس وفرض سلطانهم عليها .

فإذا آذن هذا العهد بالانقضاء ، وصحت عزيمة المعز على التحول ألى مصر ، بعد أن استكمل اهبته لذلك ، وقد اتخذ نا ئباً هو بلكين بن زيري ، بعد أن أعرض عن جعفر بن يحيى ، صاحب الزاب ، لقولة جافية قالها ، وشروط اشترطها ، رأى المعز انها تعني عزله عن ملكه في افريقية ، وارتضى للنيابة عنه بلكين الذي أظهر الخضوع له وتحقيق سياسته ، فقد كان المعز مستيقناً ـ على الرغم من ذلك ـ أن أمره قد انتهى ، كما نجد الدلالة على ذلك فيما أجاب به عم ابيه ، أبا طالب ، أحمد بن عبيد الله ، حين قال له : « يا مولانا ، وتثق بهذا القول من يوسف (يعني بلكين) ، أنه يفي بما ذكره » ، إذ قال له : « يا عمنا ، كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ واعلم يا عم أن الذي طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما سيصير اليه أمر يوسف . فإذا تطاولت المدة سينفرد بالأمر . ولكن هذا أولاً أحسن وأجود عند ذوي العقل . وهو نهاية ما يفعله من ترك دياره » (الفاظ الحنفا ، ص ١٤٣) .

لقد كان المعز يستشف ببصيرته ما يؤول اليه أمر العبيديين في أفريقية والمغرب عامة . ولعل أقصى ما كان يرجوه ، وهو يفارق افريقية ، أن تظل تابعة له ، معترفة به . أما الصبغة الشيعية فقد علم الا رجاء له فيها ، وأما سائر المغرب فهو يعلم ما يتجاذبه من عصبيات وأطماع وقوى لا مكان فيها لعقيدة أو مذهب. إنما الملك فيه لمن كتبت له الغلبة، الادارسة أو الأمويون أو آل ابي العافية أو أبو العيش أو غيرهم ، كما يعلم ما يسيطر على كثير من مجتمعاته من جهالة فاشية تجعلهم هدفا لكل ممخرق ومشعوذ ، كحاميم بن

عبد الله الذي اجتمع عليه في هذه الفترة ـ كما يقول ابن خلدون ـ كثير من عمارة ، وهي بطن من بطون زناته ـ « وأقروا بنبوته ، وشرع لهم شرائع وعبادات ، وصنع لهم قرآنا كان يتلوه عليهم بلسانه » ، إلى آخر ما ذكره من هذا القبيل .

وقد ولي أفريقية ، في هذه الفترة ، أربعة امراء صنهاجيين من ابناء زيري ، هم بلكين هذا الذي أطلق عليه اسم « يوسف » ، ثم ابنه من بعده : المنصور بن بلكين ، ثم باديس بن المنصور ، ثم المعز بن باديس .

وليس منهم من أحد ـ فيما اتيح لنا أن نعرفه من اخبارهم ـ من اعتبر نفسه مسؤولاً عن التشيع ، يسعى في نشره أو يدافع عنه ، أو يحامي عن البقية الباقية من أتباعه في افريقية .

بل إن منهم ، وهو المعز بن باديس ، من « حمل الناس في أيامه على مذهب الامام مالك ، رضي الله عنه ، وقطع ما عداه . وكانت بافريقية مذاهب الصفرية والشيعة والاباضية والنكارية والمعتزلة ، ومن مذاهب أهل السنة الحنفية والمالكية ، فلم يبق في أيامه إلا مذهب الامام مالك » كما يقول ابن ابي دينار (المؤنس ص ٨٢ ط تونس ١٣٨٧هـ) .

وكان في هذا معبرا عن الرأي العام الذي ضاق بمذهب الشيعة الذي أريد أن يفرض عليه فرضاً ، ومذاهب الخوارج (الصفرية والاباضية والنكارية) ، كما لعله كان يرى في مذهب الحنفية بقية من بقايا تبعيته للعباسيين في بغداد ، أيام الأغالبة . أما المذهب المالكي فهو المذهب الذي عاد به رجاله الذين تلمذوا على الامام في المدينة ، مهد الاسلام ، وأشاعوه بين الناس ، على الرغم من أن مذهب ابي حنيفة هو مذهب الدولة ، والى اصحابه كانت تسند مناصب القضاء وما اليها . وقد اصبح بذلك صفة من صفات القومية المغربية ، ومقوما من مقوماتها .

ولعل ما حدث في أوائل عهد المعز بن باديس من تصدي جمهور الناس لبقايا الشيعة ، والاعتداء عليهم ، كان مظهرا من مظاهر التعبير عن هذه

النزعة ، وقد أحست انها واجدة في عهده مجالا لانطلاقها . وقد حكى ابن ابي دينار ذلك بقوله :

« ولما استقر بصبرة خرجت طائفة من القيروان ، وقتلوا جماعة من الشيعة ، لأنهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الخبيث ، فقتلت نساؤهم وأولادهم . وكانت فتنة بالقيروان من أجل النهب والقتل ، ولجأ طائفة منهم بالجامع في المهدية ، فقتلوا فيه . وكان لا يرى بالقيروان أحد منهم في الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً ، وربما قتل وأحرق . واجتمع منهم قدر ألف وخمسمائة رجل تحت قصر المنصورية ، واستغاثوا بالمعز ، فأمر بالكف عنهم » (ص ٨٢) .

والواقع أن عهد المعز بن باديس كان هو العهد الذي تفجرت فيه دفائن الشخصية المغربية التي كانت قد طمرت ، وظهرت فيه ملامحها التي كانت قد انبهمت بتأثير السلطان السائد في العهد العبيدي . ثم ما زال ذلك الركام الذي طمرت به تلك الدفائن في أعماق الضمير العربي ينحسر شيئاً فشيئاً ، وما زالت تلك الملامح المنبهمة تتضح قليلاً قليلاً ، حتى إذا كان عهد المعز بن باديس ، وقد ولي أمر أفريقية صغيراً مبرأً من كل تأثر سابق ، موكولاً تثقيفه وتوجيهه وتربيته إلى شيوخ لا يدينون لذلك العهد القديم ، وفي وقت كانت الشخصية المغربية قد جعلت تبرز ملامحها ، وتتحدد خطوطها ، وتحاول أن تفرض نفسها . فلا جرم تهيأ بذلك للضمير العربي في عهده أن يأخذ مكانه ، ويسترد حقوقه ، ويخضع الأحداث له .

ومن ذلك لم يكد عهد المعز بن باديس يقارب الثلاثين حتى كانت العلائق التي تصل المغرب بالمرحلة الشيعية ، وتربط ما بينه وبين الدولة الفاطمية في مصر ، قد بليت ورثت وتهلهلت ، وإذا بالمعز يعلن ولاءه لبني العباس خصوم الفاطميين ، ثم يقطع الخطبة لهم ، ويمزق اعلامهم ، ويحرقها بالنار . وبذلك انتهت هذه الصلة الرسمية الواهنة التي كانت تصل المغرب بالتشيع ، بعد أن انتهت الصلة الحقيقية منذ عهد غير قريب .

لم يكن هذا التحول الذي حدث في سياسة الدولة الزيرية ، وهذه القطيعة بين القيروان والقاهرة ، الا مسايرة من السلطة الحاكمة لطبقات الشعب ، ورعاية للاتجاه السائد فيه ، واستجابة لما كان لا يزال يسري في نوازع ذلك الشعب : فقهائه وعامته ، على درجات متفاوتة ، من إنكار لذلك الذي جاءت به هذه الدولة الجديدة ، وما جعل دعاتها يبثونه بينهم ، ثم لهذه التبعية السياسية ، بعد أن انتقل مركز الدولة إلى مصر ، واستخلفت على المغرب من أهله من يدير شؤونه ، ويحتفظ لها بسلطانها ، فجعل يحس شيئاً من الجفوة بينه وبين الرأي العام فيه ، فلم يكد يجعل من همه إلا أن يقر الأمن ، ويحارب القبائل الخارجة على حكمه مستبقياً هذه التبعية ، في صورة دعاء على المنابر ، أو سفارات إلى القاهرة ، أو هدايا يوجهها اليها ، ابقاء على تلك الصلة القديمة ، ورعاية لتلك الثقة التي خصه الخليفة بها .

حتى إذا جاء المعز بن باديس ، وقد ورث الملك طفلاً ، ونشأ بين مربيه ومثقفيه وحاشيته في جو مقطوع الصلة بالتشيع ، لا يقيم لغير مذهب السنة وزناً ، وقد جعله هذا الجو شديد الاعتداد بنفسه ، والاكبار من سلطانه ، فانه لم يكد يقبض على زمام الأمور في أفريقية ، ويتمهد له السلطان فيها ، حتى أحس بهذا الشذوذ ، فأقدم على تصحيح الوضع ، بازالة هذه الفجوة التي تفصل بين الحاكم والمحكوم ، وأن يقضي على هذه التبعية الصورية بين أفريقية والخلافة الفاطمية .

وكان من الطبيعي ، تبعا لهذا ، الا يكون للشعب أدبه الذي يعبر عن مشاعره ، ويصور وجوه حياته ، وللبلاط شعراؤه الذين يلتزمون في شعرهم ببعض الرسوم التي تقتضيها صلتهم به ، وانتماؤهم اليه . وربما كان من هذه الرسوم الاشارة من قرب أو بعد ، تصريحا أوتلميحا، الى مذهب الدولة التي يحكم البلاط باسمها . وان كان الذي يغلب على الظن أن مثل هؤلاء الشعراء المذهبيين قد صحبوا المعز لدين الله في رحيله إلى مصر ، ليكونوا في بطانته ، وليكونوا في ذلك الوطن الجديد للدولة لسانها المنوه بها . كما أن الدولة كانت من جانبها حريصة على استصحابهم ، ليكونوا مظهرا من مظاهر

أبهتها ، ولشعورها بالحاجة اليهم فيما هي بصدده من نشر دعوتها ، والترويج لها ، والاقناع بها . أما شعراء البلاط الصنهاجي ، وأكبر انفعالهم هو بالجو السائد حولهم ، فلم يكونوا يرون في امراء بني زيري إلا ما اشتهروا به ، وما يحبون هم أن يمدحوا به ، من شدة البأس وقوة العارضة ودحر العدو ، والحزم في ضبط الأمور واقرار الأمن .

بذلك ، وبعصبيتهم في قومهم ، استطاعوا أن يسيطروا وأن يفرضوا سلطانهم ، لا بأنهم يدينون بالتشيع ، يتعصبون له ، ويدعون اليه ، ويجزون به ويعاقبون عليه ، كما كان شأن العبيديين الذين بنوا الدولة على المذهب الذي جاءوا به .

ذلك هو ما نفترض أن طبيعة الأنباء تقضي به وتؤدي اليه ، ثم هو نفسه ما يلاحظه مؤرخ الحياة الأدبية في أفريقية ، ومتتبع أدوارها وانماطها .

وقد أردت ، وأنا اتهيأ لهذا البحث واعد مادته ، أن اتبين حقيقة هذه الحياة ، واتعرف وجوهها ، من خلال ما بقي لنا من أخبار هذه الفترة وآثارها ، وخاصة فيما اتيح لنا من كتاب ابن رشيق الذي عني بها : انموذج الزمان في شعراء القيروان ، في بعض الكتب اللاحقة ، ككتاب معالم الايمان للدباغ ، ورحلة التجاني لعبد الله بن محمد التجاني ، ومعجم الادباء ومعجم البلدان لياقوت ، والانباه للقفطي ، ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري ، وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، فلم اجد فيما وقفت عليه ما يدل على الصبغة الشيعية ، مشيدا بها أو ناقما عليها ، وذلك فيمن عنيت بالتعرف اليهم من شعراء هذه الفترة .

وإلى جانب ذلك رجعت ، من كتب المحدثين ، إلى كتاب العلامة السيد حسن حسني عبد الوهاب : (مجمل تاريخ الأدب التونسي) ، وقد تحدث في الفصل الخاص بالدولة الصنهاجية عن بضعة عشر رجلاً من أهل الأدب ، وأورد لهم ما وقف عليه من آثارهم في مصادر بعضها لا يتيسر لنا

الوقوف عليه الآن ، فلم نجد ، لا في اخبارهم ولا آثارهم ، ما يدل على أي اتجاه شيعي .

وقد كان من هؤلاء رجال دولة يشاركون في القيام بأعمالها ، فهم بذلك وثيقو الصلة بها ، كابراهيم بن القاسم الملقب بالرقيق ، وابي الحسن علي بن ابي الرجال . وقد كانت هذه الصلة الوثيقة التي تربطهم بدولة شيعية الطابع جديرة أن تترك سمتها في أشعارهم ، وخاصة ما يتقدمون به لمدح رجالها . ولكنا لم نقف على شيء من ذلك .

وقد كان ابراهيم بن القاسم الرقيق كاتبا من أعرق كتاب الدولة الصنهاجية ، كما كان من ابلغ شعرائها . ولم يكن يخلي باديس من مدائحه . ولكنه إنما كان يمدحه بشدة البأس في قيادة الحرب ومواجهة العدو له ، كقوله يصف احدى معاركه :

وملمومةٍ شهباء، يسعى امامها	شهاب عزيم من طلائعه الذعر
يزجى بنات الأعوجيات شزبا	عليها بنو الهيجا دروعهم الصبر
اسود وعىً، تحت العجاجة غابها	سريجية بيض وخطية سمر
صبحت بها دهماء قوم ارتهم	وجوه الردى حمرا خوافقها الصفر

وسفر عنه غير مرة الى الخليفة في مصر، تصحبه في سفارته هدية نفيسة توثق عرى المودة ، وتقدم الى الخليفة يذكر الهدية ويثني على مرسلها ، فما عرض في ثنائه عليه بما يمكن ان يتملق به الفاطميين من اتخاذه مذهب التشيع عقيدة يدين بها ، وينافح عنها ويدعو اليها . وإنما كان غاية ما مدحه به لديه انه أمين في نيابته عنه ، ناصح في وفائه له ، قوي في مدافعة ما يعرض من خطوب وما يتم من احداث ، فهو بذلك حامي حوزته ، وذلك اذ يقول :

هدية مأمون السريرة ناصح	أمين ، اذا خان الأمين المضيع
وما مثل باديس ظهير خلافة	اذا اختير يوما للظهيرة موضع
نصير لها من دولة حاتمية	اذا ناب خطب او تفاقم مطمع
حسام أمير المؤمنين وسهمه	وسم زعاف في اعاديه منقع

وقد أمضى الرقيق في مصر وقتا لا ندري كم هو . ومصر هي مقر الدولة الفاطمية ومجلى نشاطها ، فلم يؤخذ في اقامته بها بشيء من ذلك النشاط ، أو وجه من وجوه الدعوة ، أو ما يدور حول الخليفة الحاكم بأمر الله ، أو ما إلى ذلك . ولكن الذي استهواه في مصر هو مجالي الجمال فيها ، ومواطن المتعة بها . صرف اليها وجهه ، وقد فتنته اشد الفتنة ، فإذا كان عليه ان يغادر القاهرة ، فقد غادرها وهو موقر القلب بذكرياتها ، تراوحه وتغاديه ، حتى ما تملك شاعريته ، وقد بلغ أفريقية ، إلا أن تنبجس بهذه الذكريات ، بقصيدة قاربت ، فيما أورده ياقوت ، عشرين بيتا يتغنى فيها بها ، ويعبر عن حنينه اليها ، وذلك إذ يقول :

هل الريح إن سارت مشرقة تسري	تؤدي تحياتي الى ساكني مصر
فما خطرت الا بكتب صبابة	وحملتها ما ضاق عن حمله صدري
تراني اذا هبت قبولا بنشرهم	شممت نسيم المسك من ذلك النشر
وما انس من شيء خلا العهد دونه	وليس بخال من ضميري ولا فكري
ليال أنسناها على غرة الصبا	فطابت لنا اذا وافقت غرة الدهر
لعمري لئن كانت قصارا اعدها	فلست بمعتد سواها من العمر
اخادع دهري ان يعود لفرصة	فينقذ روح الوصل من راحة الهجر
وترجع ايام خلت بمعاهد	من اللهو لا تنفك مني على ذكر

أما معاهد اللهو هذه التي صرفته مده اقامته بمصر اليها ، وأغدقت عليه فنون متعها ، حتى لم يعتد في حياته شيئاً سواها ، وحتى ظلت عالقة بذاكرته تهيج حنينه ، وتبعث أشواقه ، على النحو الذي تعبر عنه هذه الأبيات ، فيبدو انه لم يدع منها شيئا ، قريبا أو بعيدا ، إلا مضى إليه وغشيه وأقبل على الاستمتاع بكل ما يتيحه . وكأنما كان مما يسر له ذلك وأعانه عليه أن الفاطميين أنفسهم جعلوا يعنون منذ هبطوا مصر بمثل هذه الحياة الرخية الناعمة ، يهيئون اسبابها ، ويقبلون عليها ، ويفتنون في أزجائها ، كما نرى صورة من ذلك فيما يذكره ياقوت عند كلامه عن أحد هذه المعاهد التي يذكرها الرقيق ، وهو (دير مرحنا)، اذ يقول ، بعد أن يصف موقعه ، وأنه على

شاطىء بركة الحبش ، بينه وبين الفسطاط ، قريب من النيل : « والى جانبه بساتين ، ومجلس على عمد رخام ، مليح البناء ، جيد الصنعة ، انشأه تميم ابن المعز » . يعني ولد المعز لدين الله الفاطمي .

ولا بأس أن نذكر هذه المعاهد، كما تحدث عنها الرقيق في شعره، لأنها تؤدي الينا صورة عن بعض ما صارت اليه الحياة الأدبية في ظل الدولة الفاطمية ، لا في أفريقية وحدها ، وقد تبينا شيئا من معالم هذه الحياة فيها ، بل بين الشعراء الأفارقة حين يفارقونها الى بلد مثل مصر ، مقر الفاطميين وموطن نشاطهم ومبعث دعوتهم . ثم لأنها - إلى جانب ذلك - تجلو صفحة من صفحات هذه الشخصية الافريقية ، لعلها ذهبت في غمرة الاهتمام بإبراز صفته التاريخية . وها هي ذي ابيات شعره التي تمثل بعض ألوان حياته في هذه الفترة منها :

فكم لي بالأهرام، أو دير نهية	مصايد غزلان المطارد والفقر
إلى الجيزة الدنيا، وما قد تضمنت	جزيرتها ذات المواخير والجسر
وبالمقس، والبستان للعين منظر	انيق،إلى شاطى الخليج، إلى القصر
وفي سردوس مستراد وملعب	إلى دير مرحنا الى ساحل البحر
وكم بين بستان الأمير وقصره	إلى البركة الزهراء من زهر نضر
تراها كمرآة بدت في رفارف	من السندس الموشى ينشر للبحر
وكم بت في دير القصير، مواصلا	نهاري بليلي، لا أفيق من السكر
تباكرني بالراح بكر غريرة	اذا هتف الناقوس في غرة الفجر
مسيحية، خوطية، كلما انثنت	تشكت اذى الزنار من دقة الخصر
وكم ليلة لي بالقرافة، خلتها	لما نلت من لذاتها ليلة القدر
سقى الله صوب القطر تلك مغانيا	وان غنيت بالنيل عن سبل القطر

حياة رائعة محفوفة بمواطن الفتنة اتاحتها مصر الفاطمية الشيعية لكاتب الدولة الزيرية التي تحكم باسم الدولة الفاطمية ، فاستغرقته ، وابى الا أن يسجلها في هذه الصورة البارعة ، ليقدم بها شاهدا على أن تحول الدولة

الشيعية إلى مصر كان ايذانا بأنها فقدت العناصر الأصيلة التي كانت تريد أن تؤثر بها في الحياة حولها ، وتطبعها بطابعها .

وأما الشخصية الأخرى من الشخصيات الوثيقة الصلة بالدولة النائية في افريقية عن الدولة الفاطمية في مصر ، شخصية علي بن أبي الرجال ، فهي شخصية كاتب شاعر أديب . فهو صاحب ديوان الانشاء في الدولة الزيرية ، وبمكانته هذه منها كان هو الذي وكل اليه أمر المعز بن باديس حين آلت الامارة اليه وهو طفل ، فكان هو الذي تولى تربيته وتنشئته وتثقيفه . وكان إلى جانب حذقه الكتابة ، وتدبير أمور الديوان ، شاعرا يعبر بشعره عما يضطرب في صدره ، وما يمر بحياته من نعمة ينعم بها ، أو متعة يتملاها ، أو محنة تسوءه ، أو حدث من الأحداث التي تعرض له فتثير شجونه . وبين أيدينا من شعره أبيات يذكر فيها قومه من شيبان ، وينوه فيها ببلائهم في توطيد الملك وإقامة دعائمه :

يا آل شيبان! لا غارت نجومكم	ولا خبت ناركم من بعد توقيد
انتم دعائم هذا الملك، مذ ركضت	قبل الخيول لابرام وتوكيد
المنعمون إذا ما ازمة أزمت	والواهبون عتيقات المزاويد
سيوفكم افقدت كسرى مرازبه	في يوم ذي قار إذ جاءوا لموعود

إلى غير ذلك مما بقي لنا من آثار شاعريته ، نقرؤها فلا نحس فيها أية نفحة شيعية ، أو تعبير عما يخالج النفوس من قبلها . كأن اختياره لمنصبه في الديوان لم يكن قائماً على اعتبارات مذهبية ، ولعل ذلك كان شأن جميع من كانوا يعملون للدولة . بل يبدو أن ابن أبي الرجال كان معروفاً بمجانبته للتشيع ، ومن ذلك ما يقال من أن توليه تربية المعز بن باديس هو الذي جعله ينشأ على الإعراض عن التشيع ، والتجاوب مع الرأي العام في أفريقية ، وكان بذلك هو الذي بذر في نفسه البذور الأولى التي انتهت به إلى الانتقاض على الدولة الفاطمية في مصر ، وقطع علاقته بها .

كان ذلك شأن من لعل صلتهم بالدولة التي تحكم باسم الفاطميين

كانت تدعوهم إلى شيء من الزلفى يعلنون به ولاءهم لها ، دون أن يكون لذلك أي صدى فيها بين ايدينا من اثارهم . فما احسب انا بحاجة بعد ذلك إلى أن نعرج على الشعراء الآخرين الذين لا تربطهم بالدولة مثل هذه الصلة ، كأبي اسحاق الحصري ، وعبد الكريم النهشلي ، وعلي بن حبيب التنوخي ، وعبد العزيز بن خلوف الحروري ، فترى أن شعرهم لا يحمل أي تعبير عن المذهب الشيعي .

وبذلك يمكن القول بأن هذه الفترة من فترات التشيع في المغرب العربي ، إذا كانت تعد منها سياسيا ، بحكم تبعية الدولة الزيرية للدولة الفاطمية ، فإنها من الناحية الأدبية قد رثت صلاتها بها ، حتى لا نجد حرجاً في أن نزعم انها قد برئت بعد رحيل المعز لدين الله من علائقها .

محتويات الكتاب

Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com